

روائع الأدب العربي  
(الأعمال الإبداعية)

طه حسين

دعاء الكروان

Looloo

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)





اتيح لهذه القصة أن تبلغ من نفس شاعرنا  
العظيم خليل مطران موضع الرضا ، فأهدي  
إلى هذه القصيدة الرائعة فضلاً منه أتقبله  
فخوراً شكوراً . وأكره أن أوتر به  
نفس من دون الذين يحبون الشعر الرفيع  
بل أكره أن يحملني التواضع الكاذب على  
إخفاء هذه المكرمة التي إن صورت شيئاً  
فإنما تصور نفساً كريمة وقلباً عطوفاً :

دُعَاء هذا الكرّوان الذي

خلّدته في مسمع الدهر

له صدّي في القلب والفكر من

أشهى متاع القلب والفكر

لكنه مُشجّر بترجيعة

لما جرى في ذلك القفر

إذ تسكنُ البیداء وهناً فما

ينبضُ إلاّ مهجُ السفر



والليل في التيه السحيق المدى  
يُطبق جفنيه على وزر

والطائر المرتاع في جوه  
يُنذر بالمأساة في دُعر

يُرْنُ إرثان سهام رمت  
حيث رمت بالشعل الحمر

أسال أدمعي خطب مظلولة  
مقتولة في زهرة العمر

جنى عليها واهم أنه  
يثار للعرض وللطهر

وخامرتني حسرة خامرت  
شهود ذاك المصرع النكر

أليس للأرواح في بشها  
أواصر من حيث لا تدري

جوهرها فرد وإحاسها  
مُشترك في النفع والضر

حادثة في ريف مصر جرت  
ومثلها في الريف كم يجري

قصت علينا قصصاً شائقاً  
في كلام أنتى من القطر

مسرودة سرداً على صفوه  
أفعل في النفس من الحمر

يا لغة العرب التي كاشفت  
طه بما صانت من السر

من أي روض يجتنى مثل ما  
جناه من أزهارك النضر

من أي بحر والمنى دُرّة  
يصاد ما صاد من الدر

من أي تبر في غوالي الحلّى  
يُصاغ ما صاغ من التبر

آيات طه نزلت بالهدى  
فيم استعسارت فتنة السحر

أحدث ما جاءت به طرفة  
بديعة في أدب العصر

جلت خيال الشعر في صورة  
أغاريت الشعر من النثر



١  
لم يكن يقدر أنى سألناه قائمة باسمه حين أقبل إلى في ظلمة الليل  
يسمى كأنه الحية أو كأنه اللص ، ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين  
شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح  
حتى أخذه شيء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض  
جعل يأخذ صوته الطبيعي قليلاً قليلاً : ماذا ! ألا ترالين ساهرة إلى  
الآن ؟ أتعلمين متى أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثه وما كان  
ينبغي لي أن أنام قبل أن ينام سيدي ، فما يدريني لعله يحتاج إلى شيء .  
قال وقد عاد إلى ثباته وهدهوء نفسه واسترد صوته شيئاً من قحته المألوفة  
ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها  
وتسهر منتظرة مقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت  
أرى من سبقك في خدمتي ، وكنت أقدر أنى سأجد في إيقاظك بعض  
الجهد ؛ فلست أدري ما بال نوم الخدم بثقل حتى كأنهم أموات .  
قلت : قد أرحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت  
منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل في دورهم ، فليأمر  
سيدي بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مد إلى يداً وددت  
لو استطعت قطعها ، ولكني تراجعت حتى لا تبغني : فإن سيدك بأمرك  
أن تتبعه .

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في ثره .



ليبك لبيك أيها الطائر العزيز ! ما زلت ساهرة أرقب مقدمك وانتظر نداءك ، وما كان ينبغي لي أن أنام حتى أحس قربك ، وأسمع صوتك ، وأستجيب لدعائك . ألم أعود هذا منذ أكنه من عشرين عاماً !

ليبك لبيك أيها الطائر العزيز ! ما أحب صوتك إلى نفسي إذا جئت الليل ، وهذا الكون ، ونامت الحياة ، وانطلقت الأرواح في هذا السكون المظلم ، آمنة لا تخاف ، صامتة لا تسمع !

إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح لئلا كثرني روح هذه الأخت التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة الرهيبة ، وفي ذلك الفضاء العريض الذي لم يكن من سبيل لي أن يسمع الصوت فيه مهما يرتفع ، ولا أن يجيب المغيث فيه لمن استغاث .

ليبك لبيك أيها الطائر العزيز ! ادن مني إن كان من أخلاقك الدنو ، وأنس إلى إن كان من خصالك الأتس إلى الناس ، واسمع مني وتحدث إلي ، وهلم تذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً ، وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التي أزهرت ، وعن هذا الدم البريء الذي سفك .

فلم نرد حينئذ على أن بعثنا صيحات ترددت في ذلك الفضاء العريض لكنها لم تبلغ أذناً ولم تصل إلى قلب ، وإنما صعدت إلى السماء على حين هوى ذلك الجسم الجميل الممزق في تلك الحفرة التي أعدت له إعداداً ، ثم هيل التراب وسويت الأرض ، وأنت تدعو ولا من يستجيب ، وأنا أستغيث ولا من يغيث ، وامرأة متقدمة في السن قد انتحت ناحية وجلست تذرف دموعها في صمت عميق ، ورجل متقدم في السن قد قام غير

بعيد يسوى الأرض ، ويصب عليها الماء ، ويردها كما كانت ، ثم يتحن قلباً وبزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب ، ثم يرتفع صوته آمراً أن هلم فقد آن لنا أن نرتحل .

منذ ذلك الوقت تم العهد بينك وبين أيها الطائر العزيز على أن نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى نثار لهذه الفتاة التي غودرت في هذا الفضاء ، ثم نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد أن نظفر بالثار ، ليكون في ذكرنا إياها وفاء لهذه النفس التي أزهرت ، ولهذا الدم الذي سفك ، ورضاً عن الانتقام وقد ألم بالآثم المحرم ورد الأمر إلى نصابه ، وأراح هذه النفس التي ما زالت تطلب البرى حتى نظفر بالثار من الذين اعتدوا عليها .

ليبك لبيك أيها الطائر العزيز ! إنا لنتقى كلما انتصف الليل منذ أعوام وأعوام فتدبر بيننا هذا الحديث ، أفندعني أقص أطرافاً منه على الناس لعلهم أن يحملوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن ترهق ، والدماء البريئة من أن تراق ؟ !

لقد بعد صوت الكروان قليلاً قليلاً حتى انقطع ولم يلبقى منه شيء ، وعاد الليل إلى سكونه الهادئ الثقيل ، واطمأن من حولى كل شيء ، فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد ، وهذه الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا القلب الحزين . . . وأنا آخذ



نفسى بالهدوء لألامم بينها وبين ما حولها فلا أوفق لبعض ذلك إلا فى مشقة وعناء . وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حولى فى الغرفة فأرى ثراء وبسراً ، وأرى ترفاً وكلفاً بالجمال والفن ، وأنا أمدّ عيني إلى المرأة أمامى وأبنيها فى أديمها الصافى الصقيل حيناً فتعود إلى بصورة إلا تكن رائعة بارعة ، فإنها لا تخلو من رواء ونضرة وحسن تنسيق . وما لى أسأل عن صورة هذه المرأة الجمادة الهامدة التى لا تحس شيئاً ولا تشعر بشيء ولا تعرب عن شيء وإنى لأرى صورتي مرآت ومرآت فى غير مرآة من هذه المرايا الحساسة الشاعرة البليغة التى تحسن الإفصاح عما فى النفوس وهى العيون ! لقد رأيت صورتي اليوم فى غير عين من هذه العيون التى كانت ترمقنى مسرعة ، ثم تعود إلى فتطيل النظر إلى قليلاً ، ثم تعود إلى مرة أخرى فتثبت فى وجهى لا تكاد تنصرف عنه . وكنت كلما رأيت صورتي فى هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآثمة لا أنكر ما أرى ، ولا أكره ما أجد من الشعور ، ولا أردّ نفسي عن هذا الغرور الذى يثيره فى المرأة إعجاب الناس بها ونهالكهم عليها .

ثم أنا أنهض من مجلسى ، وأمشى فى غرفى لحظة غير قصيرة ، أذهب فيها وأجىء ، وأقف عند ما يملأ هذه الغرفة من أدوات الترف والنعمة ، فأطيل النظر إليه لا معجبة به ولا مكبرة له ، وإنما أسأل نفسي : أنا صاحبة هذا كله ؟ أنا المالكة لهذا كله ؟ أنا صاحبة هذه الصورة التى تردّها إلى المرأة التى كانت ترمقها العيون معجبة حين كنت أتناول الشاي فى بعض مشاربه عصر اليوم ؟ !

ثم أنا أفكر غير طويل فإذا أنا أستطيع ، وقد تقدم الليل حتى كاد

يبلغ ثلثيه ، أن أمدّ يدي إلى زرّ كهربائى قريب ، فلا أكاد أمسه حتى يطرّق الباب ، ولا أكاد أرفع صوتى بالإذن حتى تدخل على خادم وضيئة ، حسنة الشكل ، جميلة الزى ، ساهرة مهما يتقدّم الليل لأنى ما زلت ساهرة ، ولأنها لا تستطيع أن تأوى إلى مضجعها حتى آذن لها بالنوم . ثم أنا أمضى إلى هذه النافذة ، فلا أكاد أفتحها حتى تمتلئ نفسي روعةً وجلالاً لهذه الأشجار النائمة ، وهذه الأزهار المتأرجة ، وهذه الأطيّار التى تحلم فى ثنايا الفصون . وكل هذا لى ملك خالص لا يشاركنى فيه أحد ، ولا يزاحمنى عليه أحد ، أستطيع أن أعبت به إن شئت ، ومنى شئت ، وكيف شئت ، لا يسألنى أحد عما أفعل !

فإذا اجتمعت فى نفسي صور هذا النعيم كله أحسست راحة وأمناً وثقة ، ثم لا ألبث أن أحس شيئاً من الكبرياء الغريبة ، لأنى لا ألبث أن أرى صورتي منذ أكثر من عشرين عاماً حين كنت صبية بائسة يائسة ، قد شوّه البؤس واليأس شكلها وألقيا على وجهها غشاء كثيباً من الدمامة والقبح . لا ألبث أن أجد هذا الحزن اللاذع العميق حين أذكر هذه المأساة التى كنت أتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز ، والتى كان يتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز .

إنّ فى أحداث الحياة وخطوبها لعظات وعبراً ! إنى لأتحدث الآن إلى نفسي حديثاً ما كان يمكن ولا يتظر أن تتحدث به إلى نفسها تلك الفتاة التى كان الناس يسمونها آمنة ، والتى تسمى الآن سعاد لأنه اسم جميل يلائم المألوف من حسن الاختيار والنظر فى الأسماء .

لقد كانت آمنة تلك فتاة بدوية . انحدرت بها وبأختها امرأة من



أهل البادية ، أو من أهل هذا الريف المصرى الذى يشبه البادية ، لأنه منبث في أطراف الأرض الحصبة مما يلي الصحراء الغربية أو مما يلي هذه الهضبات التى يسميها أهل مصر الوسطى بالجيل الغربى .

كانت زهرة أم آمنة وأختها هنادى امرأة بدوية ريفية ، تقيم في قرية من هذه القرى المعلقة بهذه الهضاب والتى لا يستقر أهلها فيها إلا ربما يزيلهم عنها فوج من أفواج الأعراب الذين يقبلون من الصحراء ليتعلموا الاستقرار في الأرض والحياة في أطراف الريف ، ثم يدفعهم فوج آخر فإذا هم بمضون أمامهم مضياً بطيئاً ، يتقلون في أناة ومهل من مكان إلى مكان ، وهم يتقدمون نحو الأرض المتحضرة دائماً حتى يبلغوا حدود البادية أو حدود هذا الريف المتبدى ، وإذا هم على شاطئ القناة التى يسمونها البحر ويزعمون أن يوسف هو الذى احتضرها في الزمن القديم . فإذا أتبع لهم أن يعبروا البحر ، فقليل منهم يحفظ بيداوته ، وأكثرهم يقف في طبقات الزراع ويضيع في عداد الفلاحين .

كانت زهرة أم هاتين الفتاتين تعيش مع زوجها الأعرابي وابنتها في قرية من هذه القرى ، قد اتخذت اسمها في أكبر الظن من بطن من بطون الأعراب أو قبيلة من قبائلهم ، فقد كانت تسمى « بنى وركان » وكان أهل القرية ومن حولها يميلون الألف قليلاً ويذهبون بها نحو الياء ، فما أسرع ما أصبح سبة وعاراً يعاب به أهل القرية ، وكيف لا وقد أصبح اسمها « بين الوركين » وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحيون من اسم قريبهم ويكرهون الانتساب إليها ، ولا سيما حين كانت تدفعهم حاجة البيع والشراء إلى أن يهبطوا المدن . فقد كان اسم قريبهم لا يذكر إلا

أضحك الناس وأجرى على ألسنتهم مزاحاً كثيراً ثقيلاً : « محفظاً لنفس البدوى الذى لم يتعود دعاية القرويين وأهل الحضر .

كانت زهرة تعيش مع زوجها وابنتها عيشة متواضعة هادئة ، فيها رخاء معتدل ، وفيها عزة بهذه الأسرة الضخمة ذات العدد الكثير التى كانت أمناً تتسبب إليها . ولكن أباناً لم يكن صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة إنما كان زير نساء يحب الدعاية والمجون ، ولا يتحرج مما يتخرج منه الرجل المستقيم . وكانت له في القرية وفي القرى المجاورة خطوب كانت تخيف منه وتخيف عليه .

وكانت أمناً أشقى الناس بهذه الخطوب ، تتأذى بها في ذات نفسها - فكم حرقها الغيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة الكاملة - وتشفق منها على زوجها هذا الماكن ، فقد كانت تحبه على مجونه وفجوره ، وكانت تعلم أنه يهي لنفسه عداوات خطيرة في كل مكان بالحاحه في المجون والفجور ، وتخاف منها على حياة ابنتها ومستقبلهما وآمالها في العيش الهنيء .

ولما لى ما هي فيه من غيرة وإشفاق وفرع ذات ليلة ، إذ جاءها النبأ بأن زوجها قد صرع . ثم يستين الأمر قليلاً قليلاً ، فإذا الرجل قد ذهب ضحية لشهوة من شهوات الآثمة ، فليس له ثأر يطالب به ، وليس من سبيل إلى استعداد السلطان على قاتليه ، وإنما هو العار كل العار قد ألم بهذه المرأة البائسة وابنتها التعيستين ، وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء النساء ، تكره مكانهن منها ، وتتفهن عن الأرض ، وتزودهن بقليل من المال وكثير من الرحمة ، وتكرههن على عبور البحر والاندفاع في أرض



الريف يلتصق حياتهم فيها بأثبات شقيات ، ليس لهم سند يعتمدون عليه ، ولا ركن يأوون إليه ؛ وإنما هي امرأة وحيدة لها حظ من جمال يُطمع فيها الناس ويغري بها أصحاب المحون ، وصبيتان بائستان لا تكادان تحسنان شيئاً . والخطوب تنتقل بهن من قرية إلى قرية ، ومن ضيعة إلى ضيعة ، يلقي بعض اللين هنا ، ويلقي بعض الشدة هناك ، ولا تستقر بهن الأرض في أي حال ، حتى ينهين إلى هذه المدينة الواسعة ذات الأطراف البعيدة والسكان الكثيرين ، والتي تشقها الطريق الحديدية نصفين ، ويمضي فيها هذا الشيء المروع المخيف الغريب الذي يبعث في الجوّ شرراً ونازاً ، وصوتاً ضخماً ، وصغيراً عالياً نحيفاً ، والذي يسمونه القطار ، الذي يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم ، كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حيناً ، وبالحمير حيناً آخر ، وبالأقدام في أكثر الأحيان .

هنالك في طرف من أطراف هذه المدينة ، استقرت هذه المرأة مع الصبيتين . لجأت إلى شيخ البلدة أو إلى شيخ العزبة فأواها يوماً ، ثم ابتغى لها ولابتيتها حجرة ضيقة حقيرة قد أقيمت من الطين ، فأسكنها فيها على أن تدفع أجراها عشرة قروش كلما بدا الهلال . ثم قال لها شيخ العزبة : ما أكثر العمل هنا ! فالتفت حياتك وحياة ابنتيك في بيوت هؤلاء المترفين الذين لا يعملون في الزرع والحراث ، وإنما يعملون في خدمة الحكومة ، منهم من يخدم في معامل السكر ، ومنهم من يخدم في المركز ، ومنهم من يخدم في المحكمة الأهلية أو الشرعية ، ومنهم مهندس الري ، ومنهم مهندس الطرق ، ثم عند هؤلاء التجار الذين لا يتاجرون فيما تُخرج الأرض من الحب ، فهؤلاء فلاحون أو كالفلاحين ، وإنما يتاجرون ، في هذه الأمتعة

والعروض التي لا تأتي من الريف ولا تصنع في المدينة ، وإنما تأتي من مصر ، هناك حيث الناس لا ينطقون كما نطق ولا يعيشون كما نعيش . عند هؤلاء التجار الذين يبيعون الأقمشة والأحذية والأثاث ، يجلبونها من مصر ويبيعونها في المدينة وفي القرى ، ويربحون منها الأموال الضخمة ، ويعيشون في بيوتهم عيشة السادة والأمراء : لا يأكلون على الأرض وإنما يأكلون على الموائد . لا يأكلون الذرة ، وإنما يأكلون خبز الحنطة . لا يأكلون في أطباق النحاس . وإنما يأكلون في أطباق من الخزف . لا يسمحون لنسائهم أن يخرجن متبذلات ، وإنما يخرجن ملففات في هذه الثياب يتخذنها من الحرير ، وعلى وجوههن هذه البراقع الصفاق ، وعلى أنوفهن هذه القصبات من الذهب الخالص أو من الفضة المذهبة .

عند هؤلاء الموظفين ، وعند هؤلاء التجار تشتد الحاجة إلى الخدم ، والحياة في بيوتهم لينة ناعمة ، فالتفتي لنفسك ولا بتيتك بعض العمل في بعض هذه البيوت . قال ذلك شيخ العزبة ، ثم سمى لها أشخاصاً ووصف لها بيوتاً ووعداها بالنعوة . وانقضت أيام قليلة ولكنها ثقيلة ، كانت أمنا تلور فيها بنفسها وبنا على البيوت تعرض نفسها ، وتعرضنا للخدمة ، كما تُعرض الإماء على السادة . ولكن هذه الأيام لم تتصل ، وما أسرع ما استقرت كل واحدة منا في بيت تعمل فيه بالنهار ، وتنام فيه الليل ، وولتني آخر الأسبوع ، فتقضيت ليلة سعيدة رضية في حجرتنا تلك القذرة الحقيرة ، قد حملت كل منا ما أتبع لها حمله من الطعام ، فنجتمع إلى طعامنا ، ونحدث عن أهلنا وقربتنا ، ثم عن ساداتنا وسيداتنا ، حتى إذا تقدم الليل أغرقنا في نوم هادئ لذيد ، فإذا كان الصباح تفرقنا إلى حيث نعمل في بيوت التجار والموظفين .



وكنت أحسن الثلاث حظاً وأيمنهن طالعاً ؛ فقد قلدر لي أن أخدم في بيت مأمور المركز ، وكانت خدمتي غريبة أول الأمر ثقيلة على نفسي ، ولكنني لم ألبث أن أحييتها ووجدت فيها لذة ومتاعاً . كلفت أن أصحب صبيه من بنات المأمور كانت تقاربني في السن ، ولعلها كانت أكبر مني قليلاً .

كنت أرافقها في اللعب على ألا ألعب معها ، وأرافقها إلى الكتاب على ألا أتعلم معها ، وأرافقها حين يأتي المعلم ليلقي عليها الدرس قبل الغروب على ألا أتلقى الدرس معها .

كنت لها خادماً ألحظها من بعيد ، وأجيبها إلى ما تريد ، ولا أشاركها في شيء مما تعمل . ولكن « خديجة » كانت حلوة النفس ، رضية الخلق ، مشرقة الوجه دائماً ، مبتسمة الثغر دائماً ، وديعة النفس ، رقيقة الحاشية ؛ فلم يطل ما كان بينها وبينى من البعد ، وإنما أشركني في لعبها ، واختصني بأحاديثها وآثرتني بأسرارها ، ولم تبخل عليّ حتى يبعث ما كانت تمنحها أمها من الحلوى ، أو من النقد لتشتري به الحلوى .

وما هي إلا أن تزول بيننا الكلفة ونصبح رفيقتين صديقتين . وسيدة البيت تتكرر ذلك أول الأمر ، ولكنها تدعني له بعد حين ؛ وإذا أنا اختلف مع الصبية إلى الكتاب فاتعلم كما تتعلم ، وأتلقى مع الصبية درس المعلم فأستفيد كما تستفيد ، وإذا ثياب الصبية تخلع عليّ فيقرب ما بينها

وبيني من اختلاف الرى ، وأختلس نظرات إليها ، ثم أختلس نظرات إلى المرأة ، فلا أكاد أحس بينها وبينى فرقاً ولا اختلافاً ، لولا أنها كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هي لغة مصر ، وكنيت أنكلم لغة فجة خشنة غليظة هي لغة أهل الريف من « بني وركان » . وكنيت أقلد في نفسي لغة خديجة فأحسها وأجيدها ، ولكنني حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد ، فردعت عن ذلك ردعاً عنيفاً . ثم حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد حين كنت ألقى أمي وأختي فكانتا نضحكان مني ضحكاً يخزيني ويردني إلى لغة الريف .

وأنفقت مع خديجة عاماً وعاماً لم ألقى فيها بأساً ولم أشك فيهما عناء ، وإنما عرفت فيهما الترف والنعيم ، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء ، وبعد فيهما الأمد بعداً شديداً بينى وبين أمي التي كانت تعمل في بيت موظف من موظفي الدائرة السنية ، معتدل الحال متوسط العيش ، ولكنه أميل إلى حياة الريف ، وأحرص على تقاليد الفلاحين . وبعد فيهما الأمد بينى وبين أختي التي كانت تعمل في بيت مهندس الرى ، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه الوسيم . ذلك الشاب الذي كان يعيش وحيداً في دار واسعة ، تحيط بها حديقة جميلة نظرة ، ولا يعيش معه فيها إلا خادم ريفي ، يحرس الدار ويعني بالحديقة ، وإلا أختي تنظف الدار وتعني بمتاع الشاب ، وكان الطعام يأتيه غزيراً موفوراً من مطعم المدينة ، فيصيب منه القليل ، ويترك أكثره لخادميه .

وكنيت أرى أختي تشبّ مسرعة ، ويستدير جسمها استدارة حسنة ، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال ، ولكنها ظلت كما أقبلت من



رغبة المتبدى ، رغبة بلوية ، لا تقرأ ولا تكتب كما كنت أقرأ وأكتب .  
ولا تحسن من أمور الترف شيئاً كما كنت أحسن منها أشياء .

وفي ذات يوم التقينا آخر النهار في حجرتنا تلك الحفيرة القذرة ،  
وكنت قد أخذت أكره هذا اللقاء ، وأضيق بهذه الحجرة ، وأود لو  
أعفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع ، ولو استطعت أن ألقى أمي  
وأختي من حين إلى حين حيث كانتا تعملان . ولكن أمنا كانت صارمة  
حازمة ملحّة في الصرامة والحزم ، لا تغير من عاداتها شيئاً ، فكنا نلتقي  
آخر الأسبوع دائماً ، وكانتا تضحكان وتنعمان بهذا اللقاء ، وكنتم  
أتكلف معهما الضحك وأتكلف معهما النعيم .

فلما كان ذلك اليوم والتقينا مع المساء ، لم أر بشراً ولا ابتساماً ، ولم أر  
بهجة ولا اغتباطاً ، وإنما أحسست صمتاً عميقاً مريباً ، ورأيت وجهين  
كثيبين مظلّمين ، وخيل إلى أني أرى دموعاً تضطرب في عيني أمنا  
ولا تستطيع أن تنحدر . وهمت أن أسأل عما أرى ، فأعرضت أختي عني  
إعراضاً ، وأشارت إلى أمي أن لا تسأل .

وقضينا وقتاً طويلاً ثقيلاً في هذا الممض الذي لم أكن أفهمه  
ولا أتبين له مصلراً .

ثم انقطع هذا الصمت فجأة بجملة واحدة لم أسمع بعدها شيئاً ، ولم  
أصنع بعدها شيئاً حتى كان الصباح ، صدرت هذه الجملة عن أمنا  
فوقعت في قلبي موقع الصاعقة ، ولقيتها أختي بوجوم غريب ، رفعت  
عينها إلى السماء ، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض .

قالت أمنا : إذا كان الغد فسرتحل عن المدينة المشؤمة !

لقد هممت حين سمعت هذه الجملة أن أنكر ، وأن أمتنع ، وأن  
أناقش وأجادل ، ولكن أمنا قالت هذه الجملة بصوت حزين بعيد محطم ،  
فلم أستطع أن أقول شيئاً ولا أن أظهر شيئاً إلا الطاعة والإذعان .

وذكرت ما ألم بها من البؤس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن  
الفاجر . ذكرت ما حرق فؤادها من الغيرة ، وما آذى نفسها من الذل ،  
وما روع قلبها من الخوف .

ثم ذكرت ذلك الخطب الذي ألم بها فهدّتها هدأ حين جاءها النبا بأن  
زوجها قد صرّح ، وبأنه قد صرّح فيها لا يشرف به صريح .

ثم ذكرت هذه الآلام التي لا حد لها ، والتي غمرتها كما يغمر الماء  
الغريق ، حين أنكرتها الأسرة إنكاراً ، وحين أخرجتها من القرية ثم نفّها  
مع ابنتها من الأرض .

ذكرت هذا فلم أستطع أن أنكر ولا أن أجادل ، ولم أزد على أن  
أظهرت الطاعة والإذعان . والله يعلم أي ليلة قضيت ساهرة حائرة نائرة ،  
لا أطمئن إلى شيء ولا أسكن إلى رأي . حتى إذا كان الصباح نهضت  
أمنا فأمرت أن نستعد للرحيل . قلت : أفلا نؤذن سادتنا بهذا الرحيل ؟  
قالت في صوت هادئ حزين : إن كان يؤذيك فراقهم فأقيم فسرحل  
نحن . قلت باكية : إن فراقهم ليؤذيني لكنني لن أستطيع أن أقيم ، وإنما  
هبطت معكما هذه الأرض ، وقد كنت أحب أن أرى خديجة قبل الرحيل .  
قالت : فإنك إن رأيتها لم تعودى إلينا ، أليس أبوها مأمور المراكز ؟  
أفئن تعلق بك وكرهت فراقك يخل بينك وبين الرحيل ؟ قلت : إذن فلنرحل .  
وما هي إلا ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة ،



وانضلت بنا من قرية إلى قرية نحو الغرب ، حتى إذا بلغ منا الإعياء أقمتنا حيث كنا نستريح وننتظر الصباح .

٤

ونتهى إلى صوتك أيها الطائر العزيز ، وأنا أسبح في نوم غير عميق ، وأرى من الأحلام صورا قرية مألوفة تمثل لي خديجة وهي تلعب وتدعوني إلى أن أشاركها في اللعب . وتمثل لي سيدة البيت وهي تأمر ونهى ، وتصعد وتهبط ، وتذهب في تدبير بيتها وتجيء . وتمثل المأمور وقد أقبل مع الظهر فاضطرب لمقدمه البيت ، ثم عاد إلى هلهله بوشك أن يكون السكون ، ثم فرغ أهل البيت كلهم لهذا الرجل يعنون به ويتوحدون على خلعتهم ، كأنهم لم يخلقوا إلا له ، ولم يوقفوا إلا عليه .

وتمثل لي أمورا كثيرا مما كنت أراه في ذلك العهد السعيد القريب . ولكن صوت الطائر العزيز يبلغني فيخرجني من هذا النوم الخلو إلى بقعة مؤلمة لا أكاد أشعر بها حتى أحس غلظ المضجع وخشونة الفراش . وأين يقع هذا الوطاء الحشن من الصوف قد بسط على الأرض الغليظة بسطا ، من ذلك الفراش الوثير الموطأ الذي كان يلقي لي غير بعيد من سرير خديجة في تلك الغرفة الجميلة المترفة من بيت المأمور !

لم أكد أحس خشونة هذا الوطاء ، وغلظ هذه الأرض ، حتى ذكرت أننا ننام عند مضيفنا العمدة على سطح من سطوح الدار ، لا يسترنا سقف وإنما تظللنا السماء ، وتكاد تغمرنا ظلمة الليل لولا هذا الشعاع الرقيق الذي

كان يترقق فيها من ضوء القمر ، وقد تقدم به الشهر غير قليل .  
نعم ! وذكرت كيف انتهينا إلى هذه القرية مجهدات مكشودات آخر النهار ، فجلس إلى شجرات من الثوت ساعة وبعض ساعة نستريح ، لا تكاد واحدة منا تتحدث إلى صاحبتها بشيء . حتى إذا طال علينا الضمت ، وثقت علينا الراحة ، وثقل علينا التفكير ، قالت أمنا : ما أظن أننا نستطيع أن نفق الليل جالسات إلى هذا الشجر ، وما أرى أننا نستطيع أن نجد من يؤوينا أو يضيفنا في هذه القرية التي لا نعرف من أهلها أحدا ولا يعرفنا من أهلها أحد إلا العمدة ، فيجب أن يكون بيته مفتوحا لكل غريب طارق ليل أو نهار . ثم نهضت متثاقلة ونهضنا معها ، ومضت متباطئة ومضينا معها ، حتى انتهت إلى دار العمدة : لم تسأل عنها ولم تستدل عليها ، وإنما مضت إليها كأنما كانت تعرفها من قبل . هنالك رأينا جماعة من الناس قد جلسوا أمام الدار على مصطبة عظيمة ، وتوسطهم رجل شيخ لا تكاد العين تقع عليه حتى تنق النفس بأنه عمدة القرية . فلما بلغنا مجلس القوم ولحظنا أبصارهم ، تقدمت أمنا إلى الشيخ الوقور وقالت في صوت هادئ مترن : غريبات قد طرقت القرية في هذه الساعة المتأخرة من النهار فأوينا يا عملة حتى يسفر الصبح . قال الرجل : على الرحب والسعة . ثم دعا فأقبل إليه غلام من داخل الدار ، قال : خذ هؤلاء النسوة إلى دار الضيافة ومر يا كرام متواهن .

ومضى الغلام ونحن نتبعه حتى انتهى بنا إلى دار الضيافة : فإذا بنا متواضع قد انبسط أمامه فتاه عظيم ، فأدخلنا إلى بعض حجراته وقيل لنا أقمن هنا حتى يأتيكن الطعام . وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى اتصلنا بمن في الدار من أضياف



ونخلهم ، قد اختلط بعضهم ببعض فكانهن جميعاً أصحاب البيت ، ثم اتصلت الأحاديث واختلطنا بمن وجدنا ، فأمسينا وكأننا منهن .

وكان العشاء الغليظ ، وكان للسمر المضطرب المختلط : ثم كان الضيق إلى المضاجع ، فنا من أثر الهواء الطلق فاتخذ مضجعه على سطح الدار أو في فنائها ، ومنا من أشفق من ذلك فأوى إلى الغرفات والحجرات . وقد رغبت « هنادي » في السطح وشاركتها في هذه الرغبة ومضينا معاً نتظر النوم ، وكنت أحدث نفسي بأن هذه الخلوة إلى أخنى قد تكشف لي عن بعض ما يخفى على من أمر .

ولكني لم أكد أجلس إليها أحاول أن أصل الحديث بينها وبينى حتى لقيتني بذلك الإعراض المثلوج الذي لقيتني به أمس ، ثم أشاحت بوجهها ومضت في صمتها ، وأقمت أنا إلى جانبها حائرة لا أدري كيف أقول .

ثم استلقيت وأرسلت نفسي في فضاء هذا الليل العريض تلتبس ما يلهمها عن هذه المسموم الغامضة المستغلة التي لم أكن أعرف منها إلا ثقلها . ولكن هذه النفس لم تكف تمضي في ظلمة الليل حتى أدركها موج من هذا النوم اليسير فأخذت تسبح فيه ، وليست كذلك حتى أخرجها منه هذا الطائر العزيز . ذكرت هذا كله حين استيقظت ، ومرت لي خواطره مسرعة في حين

كنت أحاول أن أثبت أين أنا وكيف انتهيت إلى حيث أنا ، وفي حين كنت أفتح عيني وأديرهما من حولي كأنما أريد أن أستكمل شخصي حين أثبت حقيقة المكان الذي أنا فيه ، وفي حين كنت أمد ذراعي عن يمين وشمال ، وأمد ساق كأنما أريد أن أتمد بجسدي ما أفقده هذا النوم اليسير من نشاط ، وكأنما كنت أحمر عنه ما تركت فيه هذه الأرض الغليظة من ألم .

ثم استكمل شعوري وأجد نفسي كما كنت قبل أن يغمرني النوم ، وأحس كأن شخصاً قائماً غير بعيد مني ، فأتين هذا الشخص فإذا هي أخنى قائمة جامدة لا تكاد تأتي حركة . ولا تكاد تحس شيئاً ، وكأنها لا تكاد تفكر في شيء .

إنما هو شخص مائل ذاهل قد قام في شيء من الجمود المؤلم ، ورفع رأسه إلى السماء كأنه كان ينتظر منها شيئاً ، وكأنما أبطأ عليه ما كان ينتظر منها فجمد في مكانه لا يستطيع منه انتقالاً .

وأتيت أيها الطائر العزيز تلتقي في الليل العريض المظلم نداءك البعيد العذب ، فيصل إلى نفسي فيحييها ، ويوقظ فيها الذكرى ويبعث فيها الأمل ويشيع النشاط ، وأخنى مائلة ذاهلة كأن صوتك لا يبلغها ولا ينهي إليها . ومع ذلك فما عهدتها صماء ، ولا عهدتها تحسن الحزن أو تجيد الاكتئاب ، إنما أعرفها فرحة مرحة ، تحب الضحك ولا تحتاج إلى أن تدفع إليه . وإنما تحتاج إلى أن تدفع عنه . أين هي ؟ ما بالها جامدة هاملة لا تسمع ولا تحس ؟ لعلها قد أرسلت نفسها كما أرسلت نفسي تسبح في هذا الليل العريض فأبعدت نفسها في المسعى وتركت جسمها مائلاً بلا روح ،

نهضت من مكاني في هدوء ، وسعيت إليها في أناة ، حتى إذا بلغها مسست كمنها مساً رقيقاً ، فإذا رعشة عنيفة تجري مسرعة في جسمها كأنها رعشة الكهرباء ، وإذا هي تجفل كالخائفة ، ثم تأمن وتسكن حين تسمع صوتي وأنا أقول لها : لا تراعي ، فأنا أحنك آمنة ، ما وقوفك الآن على هذا النحو مائلة ذاهية النفس ، كأنك الصم ؟ ماذا تنتظرين من



الليل ؟ وماذا تبغين من السماء ؟ قالت وقد هوت إلى الأرض كأنها البناء المهلم وصوتها مضطرب ممزق ، يتمزق له قلبي كلما ذكرته : لا أنتظر شيئاً ولا أبغى شيئاً . . .

ثم عادت الرعدة السريعة فهزت جسمها هزاً ، ثم انهمرت دموعها انهاراً ، ثم احتبس صوتها فإذا هي تضطرب اضطراباً عنيفاً ، وتسفح دمعاً غزيراً ، وترسل أنفاساً عتيفة مضطربة ، وأنا أجثو إلى جانبها وأضجها إلى وأقبلها ، وأحاول أن أرد إليها الهدوء والأمن وسكون النفس ما ومعنى ذلك ، حتى إذا مضى وقت غير قصير سكن جسمها بعد اضطراب ، وانطلقت أنفاسها بعد احتباس ، وضمت دموعها تهمراً ، وأوت إلى ذراعي كأنها الطفل قد استسلم إلى أمه الرعوم ، وأطمأن رأسها إلى كتفي ، وقضت كذلك لحظة ما نسيت ولن أنسى عنوبتها . وما أرى إلا أنها أحست هذه العنوبة ! فقد ثابت إليها نفسها وراجعها رشدها ، وليث حيث كانت حتى بعد أن سكنت دموعها ، كأنما أعجبها مكانها مني ، وكأنما وجدت شيئاً طالما كانت تنوي إليه فلا تجده ولا تنظر به . ثم سمعتها تقول بصوت خافت بعيد : لقد كنت أحب أن أكون بهذا المكان من أي لأمئك أنت أيها الأخت الصغيرة ، فإنك لم تخلق لتدلي أختك وتدحجها مثل هذا العطف والحنان .

يا لك من ليل مظلم عريض تضطرب فيه هذه الأضواء الضئيلة البعيدة التي تقني ، ويبسط عليه هذا السكون الخفيف ظلالاً لا حد لها ، ثم يتدفع فيه من حين إلى حين صوت هذا الطائر العزيز كأنه سهم مضى ، ينطلق في بحر من الظلمات !

كل شيء هادئ مطمئن من حولنا حتى نفس هذه الفتاة التي

كانت ناثرة منذ لحظة فقد اطمأنت وسكنت ، وانتهت إلى حال تشبه النوم . وإلى لأخذ نفسي بالهدوء وأكرهها على الاطمئنان ، وألزم جسمي السكون في هذا الوضع الذي هو عليه ليبنى هذا الرأس البائس المحزون مترجماً إلى هذه الكتف الصغيرة الحنون .

ولكن الفتاة ترفع رأسها وتستوى جالسة ، ثم تبسط ذراعها فتظلق بها عني ثم تضميني إليها ، ثم تقبلي ، ثم تقول : إياك أن تفعل ما فعلت أو تُحدثني كما تحدثت أو تدفني إلى مثل ما دُفعت إليه . إني إن تفعل ترى نفسك في مثل ما تريني فيه الآن من الجزع والهلج ، ومن اليأس حتى من رحمة الله ، ومن القنوط حتى من روح الله الذي لا يفتن منه إلا الكافرون .

قلت : وماذا فعلت إذن ؟ وما هذا الشر الذي دُفعت إليه ؟ وما هذا اليأس الذي تفرقين فيه ؟ وما هذا الهم الثقيل الذي أُصب علينا صبيًا ولم نكن نستظره ولا نتوقع له مقدماً ؟ قالت وهي تقبلي : لست أدري أأحدثك بذلك أم أكتحك إياه ، إني لأعندى على سنك أن تحدثت إليك ، وإني لأعرضك لمثل ما أنا فيه إن كنتك الحديث .

قلت : فإن صحتك لن يعني الآن شيئاً ، فقد عرفت أن عمًا ثقيلًا لم يبن ، وأن حزنًا ممضًا يمزق قلبك وقلب أمنا ، وأن يأساً مهلكاً قد استأثر بنفسك استئثاراً ، وما أنا بمقلعة عن السؤال والبحث والتفكير حتى أعلم علم هذا كله . وإني لحمقاء إن قبلت أن أنزع من ذلك العيش الناعم السعيد الذي كنت أمتنع به دون أن أعلم لماذا أنزع منه نزعاً ، فحدثني حديثك ، فمن يدري لعل فيه لي عظة ولك عزاء .



وارتفع الضحي من الغد فإذا ضوءه المتدفق يغمر فتاتين معتنقتين قد أغرقتا في نوم عميق ، لا يوقظهما منه حرّ الشمس المحرقة ، ولا مس الأرض الغليظة ، ولا اضطراب اللواجن من حولها وهن يزدحمن على ما ينثر لهن من حب ، ويختصمن فيما يُصبّ لهن في الصحاف من ماء ، ويخفقن بأجنحتهن في الهواء مقبلات مديرات ، واقعات طائرات ، ينادين ويتناجين ويتناغين ، قد ملأهن إشراق الصبح مرحاً ، فلأن الجوحياة ونشاطاً وجباً . وكان هذا كله كأن يدعوني دعاءً ملحاً من أعماق النوم الذي كنت مغرقة فيه ، ويدنني قليلاً قليلاً من اليقظة ، وإذا أنا أتلقى الحياة دون أن أتمثل الحياة ، وأستقبل النشاط دون أن أشعر بالنشاط ، ثم أحس كأن شيئاً خفيفاً رشيقاً قد مسّ كتي مساً يسيراً فأنتبه ، ولا أكاد أفتح عيني وأرى بعض الحركة حتى أرى حمامة مذعورة قد ارتفعت غير مسرفة في الارتفاع ، ولم تكد تطير حتى وقعت في رشاقة وظرف غير بعيد ، فأستوى جالسةً وألقى نظرة إلى أختي وقد تاب إلى حديثنا كله مرة واحدة فلا قلبي إشفافاً وجباً وحزناً . وتقع عيني عليها وقد استراح جسمها المتعب ، واستقر قلبها المضطرب ، وهذأت نفسها الثائرة ، وذادت الراحة عن وجهها ذلك الغشاء المظلم الكئيب ، فبدت نضرة حلوة مشرقة شائقة كأنها نضرة الزهر وقد تفتح لضوء الصبح وقطر الندى ، وإذا في هذا الوجه الهادئ النضر جمالٌ للعين ، وفتنة للعقل ، ومتعة للقلب ، وإذا أنا أنظر إليه فلا أكاد أحول عيني عنه ، مستريحةً "معجبة" مكبرة ، ولكني أسمع من ورائي

صوتاً خافتاً يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إلى : انظري . . . انظري . . . وأطيلي النظر ! ألسنت تريها حسناء رائحة الحسن ؟

فألتفت وإذا أمنا جالسة تنظر إلى الوجه الذي أنظر إليه ، وما أشك في أن نفسها كانت تستعرض خواطر كالتي تختلف على نفسي ، وفي أن قلبها كان يتأثر بعواطف كتلك التي كانت تملأ قلبي ، فأسأها : ما جلوسك هنا في هذه الشمس المحرقة ؟ فتجيب : لقد كنت أماً عيني بمنظر كما الجميل . . . ثم تنهض مولية في شيء من الإسراع وهي تغالب شجتي يريد أن ينفجر ، وتحرص هي على أن يظل دفيناً .

وأقيم أنا في مكاني ذاهلة أو كالداهلة ، أنظر إلى أختي التي لم تستيقظ بعد ، وإلى أمي التي تسرع مولية تريد أن تهبط أسفل الدار ، وأفكر في هذه الفتاة اليائسة وفي هذه المرأة البائسة ، وأسأل نفسي : أيهما أحق بالعطف وأجدى بالرثاء ؟ وأسأل نفسي : أيهما أحق مني بالمعونة والنصر وبالتعزية والتسوية ؟ فكلتاها في حاجة إلى العون ، وكلتاها في حاجة إلى العزاء . . . .

هذه الفتاة البريئة لم تعرف بؤس النفس قبل الآن ، وهي تستقبل الشقاء الآن مظلماً قائماً ثقيللاً ملحاً . لم تدعه ولم تسع إليه ، وإنما أكرهت عليه إكراهاً وأغريت به إغراءً ، ثم دُفعت إليه دفعاً ، وهي الآن غريق مشرقة على الموت ، تريد أن تقاوم وتجاهد الموج ما وسعها الجهاد لا تجد ما تعتمد عليه أو تتعلق به .

ولأنها لقي ذلك إذ ساق القدر إليها من أختها الصغيرة "ثممة" تستطيع أن تستمسك بها وتستبق فضلاً من أمل ، وحظاً من رجاء .



وهذه المرأة التي لم تبلغ الشيخوخة بعد، ولكنها قد فرضت على نفسها حياة الشيوخ: حرمان متصل، وانصراف عن كل ما في الحياة من لذة، وإعراض عن كل ما في الحياة من متاع، واكتفاء بما يقيم الأود ولا يبدل من الموت، ونظر متصل إلى هذا الماضي القريب الذي يملؤه الحزن ويفعمه الأسى، وتضطرم فيه هذه النيران التي تحرق قلب المرأة حين تحب، فلا يسعها الحب، ولا تلقى ممن تحب إلا حياة وغداً وغداً.  
ولما لم تكن ذلك عززاً لأمسها، يائسة من غدها، معرضة عن يومها، وإذا الحياة تنكشف لها عن خطب جديد ثقيل، ليس أقل نكراً ولا أهون أمراً من تلك الخطوب التي بلبها في حياتها الماضية، فهي تنظر وراءها فلا ترى إلا ظلمة، وتنظر أمامها فلا ترى إلا ظلمة، وتنظر عن يمين وشمال فلا تجد عوناً ولا نصيراً.

لقد أنكرتها الأسرة وجفأها الأهل ونفها القرية، وأصبحت وحيدة تعول ابنتين بائستين، وإذا هي تنكب في إحداهما لأمر لا تعلمه وقضاء لم تكن تتظوره. كلتاها بائسة، وكلتاها شقية، وكلتاها خليقة أن تجد من الأخرى ما تحتاج إليه في هذا كله. ولكن هذه النكبة الملمة، والكارثة الملمة قد باعدت بينهما: فالأم محقة على ابنتها: والفتاة نافرة من أمها، لا يتصل بينهما حديث ولا تثبت عين إحداهما في عين الأخرى، إنما تتفاهمان بالإشارة أو الجمجمة، فإذا التقت أعينهما فما أسرع الإطراق إلى رأسيهما! ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مرتجلة مستحيلة إحداهما إلى أن تولى مدبرة لثنائى عن صاحبها فلا يكون بينهما نظر ولا حديث.

هل أستطيع أن أرد ما بينهما إلى طبيعة الصلة بين الأم البائسة

والابنة الخزونة؟ بل هل أستطيع أن أعيد الأمر بيتنا إلى شيء مما كان عليه قبل هذه الكارثة من هذه المودة السهلة التي لا تكلف فيها ولا تصنع ولا رباء؟ بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين نحضي، وماذا تريد بنا أمنا هذه التي تأمر ونهى في حجة حازمة صارمة وإيجاز مقتصد لا يقبل حواراً ولا جدالاً؟ ذلك أجدر أن أفكر فيه، وأخرى أن أسعى إليه. فلا تبعن أذى إذن ولا تلتطفن لها، ولأسألها في أناة ومودة ورفق حتى أعلم علمها، ثم أنظر بعد ذلك فيما آتى، أو فيما يمكن أن تأتى من الأمر.

كل هذه المعاني تضطرب في نفسي، وعيني لا تكاد تفارق هذا الوجه الهادي الذي يدل هدووه على أن أختي ما زالت في تلك الأعماق البعيدة التي كنت فيها منذ حين، لم يبلغها ضوء الشمس وحرها، ولم يؤدها من الأرض وغلظتها، ولم يصل إليها اضطراب الدواجن وما تملأ به الجو من نشاط ومرح وصباح.

فأهض مثاقلة مترفة حتى أهبط فناء الدار ألتبس أمنا، وما كان أيسر الوصول إليها! فقد اعتزلت غير بعيد من السلم وجلست منحنية نحيب في الأرض بأصابعها عينا يدل على شيء من الذهول، كأنما كانت تناجي هماً ثقيلًا أو تتبع خاطراً بعيداً؛ حتى إذا بلغها مست رأسها بيدي وسألها مداعبة: ما هذه اللعبة التي تلعبين؟ وهلا دعوتني لأكون شريكك في اللعب؟! فإن مثل هذه اللعبة لا تستقيم إذا انفردت بها لاعبة واحدة...

قالت وقد رفعت إلى رأساً حزينا: أترينني ألعب يا ابنتي؟ قلت: فما عني أن تفعل بهذا التراب الذي تذهب فيه أصابعك ونجى؟ ثم أنهضها فلم تمنع علي، ومضيت بها إلى ناحية من الفناء



لا يكثر فيها اضطراب الأضياف ، ونظرت إليها فإذا هي تنقاد إلى مستسلمة ، وإذا حزنها العميق وحنانها القوي قد فاضا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأطفال .

هنالك أحسست من نفسي قوة ، وشعرت كأنني أنا الأم « زهرة » وكأنها هي الفتاة « آمنة » ، فاتخذت صوتها ولهجتها وألقيت عليها في غير تكلف هذه الأسئلة : ماذا تريدن ؟ وماذا تصنعين ؟ وأين تذهبين بنا ؟ قالت وقد انحدرت دموعها : لا أصنع شيئاً ، ولا أدري أين أذهب بكما ، وإنها أريد أن أنأى بكما عن هذه المدينة الموبوءة . قلت : ولكن إلى أين ؟ قالت : سري . قلت : ومتى تری ؟ قالت : لا أدري . قلت : فقد ينبغي أن تدري ، فما يحسن بثلاث من النساء أن يهمن في الريف على وجوههن ، تلفظهن قرية وتلقاهن قرية أخرى ، يؤويهن هذا العمدة وقد يردهن ذاك . قالت : فماذا تشيرين ؟ قلت : أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين تلك الدور التي كنا نحيا فيها حياة أمن وهدوء . . .

وهنا أخذتها رعدة قوية وقالت في غضب وحدة : أيّ أمن وأيّ هدوء ! إنك إذن لم تعلمي . قلت : بل علمت . قالت : وقد اجترأت البائسة على أن تلقى إليك هذا الحديث ! ألم يكفها ما اقترفت من الإثم ، وما انغمست فيه من الدنس حتى أرادت أن تكوني لها شريكة ! قلت في رفق : دعها وما هي فيه الآن وعمودي بنا إلى ما كنا فيه .

أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين ما كنا نستعين به على الحياة من عمل ، فإني أرى أن نلتمس العمل في قرية من هذه القرى عند غنى من هؤلاء الأغنياء . قالت : لقد فكرت في هذا ، ولكني أرى

أن ليس إليه من سبيل ! فإن المرأة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأمن ، ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب أو أخ أو زوج . قلت : فليس لنا أب ولا أخ ولا زوج ! قالت : بل لنا من يحمينا ، وقريننا التي تقينا عنها أحتق بنا ونحن أجدر أن تعود إليها . ولئن بلغناها ليعلمن الذين جفونا ونفونا أن من العار أن تنفي الأسر نساءها وكرامتها ! فالمرأة عورة يجب أن تستر ، وحرمة يجب أن ترعى ، وعرض يجب أن يحصان .

قلت : فأنت تريدن إذن أن تعودى إلى تلك الحياة البائسة التعسة التي كنت تحيينها بين قوم لا ينظرون إليك إلا شراً ، ولا يعطفون عليك إلا كرهاً ، ولا يتحدثون عنك إلا في سخرية ورجة شر من السخرية ؟ ! قالت : نعم ! فكل هذا أهون مما لقينا ، وكل هذا أهون مما يمكن أن نلقى إن مضينا في هذه الحياة الهائجة التي لم نخلق لها ولم تخلق لنا . ولقد انقطعت تلك الأسباب التي كانت تدعو إلى جفاء الأسرة وإعراض ذوي القرى وسخر الأعداء ورثاء الأصدقاء . لقد انقطعت تلك الأسباب وبعد بها العهد . ولئن بلغنا قرينتنا ليدكرن الناس بعض أمرنا حيناً من الدهر ، ثم لا يلبثون أن ينسوه وأن ينسوننا ، ولا نلبث نحن أن ننغمس في حياتنا الأولى ونعيش بين أهلنا بائسات ، ولكن آمنا . . .

قلت : وتريدن أن تبلغ هذه القرية ساعيات على أقدامنا ، ننقل من ريف إلى ريف ، ونستضيف هذا يوماً وذاك ليلة ، وقد أعجلتنا الرحيل عن كل أمرنا ، فتركنا متاعنا وما اجتمع لنا عند من كنا نعسل عندهم ! قالت : سترين ، فلن ينالكما جهد ، ولن يمسن حياتكما أذى ، سنقيم هنا حتى يأتي من يحملنا إلى قرينتنا ويبلغنا مأمننا بين الأهل والأصدقاء .



قلت : وكيف يستقيم لنا هذا ؟ قالت : علمت منذ أصبحت  
اليوم في القرية سوق يجتمع فيه الناس من أطراف الريف ، فلا سم  
بين الناس والبائعات ، فلن أعدم بينهم رجلاً أو امرأة من أهل قريتنا  
من أهل قرية مجاورة ، فلا حزنه رسالة إلى أهلنا ، ولن يتم الأسبوع  
يكون أخي هنا قد أقبل يحملنا إلى حيث ينبغي أن نعيش .

وهمت أن أمضي معها في الحديث ، ولكن حركة عنيفة قطع  
علينا ما كنا فيه . فهؤلاء نسوة قد أقبلن يحملن الجفان والأسفاط ويدن  
إلى الطعام .

ويسمع الأضياف دعاءهن ، ويرى الأضياف مقلمنهين فيستجيب  
للدعاء ويسرعن إلى الطعام ، ولا بدّ من أن نستجيب كما استجب  
ومن أن نسرع كما أسرعن ، لا بدّ من أن أسعد فأنه أخي هذه  
لا تريد أن تفيق من ليمها الطويل بعد أن كانت لا تريد أن تخرج  
أرقها الطويل .

فأسعد ، ولكني لا أكاد أبلغ آخر السلم حتى أراها قائمة  
حيث رأيتها من الليل حين أبغض طائري الغزير .

٦

وأقبل من في الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء  
البائعات على الطعام مسرعات يتراهن بالمتأكب ، ويتدافعن بالأيدي  
ويتزاجرن باللفظ واللحن ، ويرتفع في أثناء ذلك صراخ دعاء لصاحب الدار

يوثق الله حزامه ، ويعلى مقامه ، ويصرف عنه الداء ، وينصره على الأعداء .  
ونحن نسمي وجلات خجلات ، يدفعنا الجوع والأدب ، ويمسكنا  
الحياء والاحتشام ، حتى إذا استدارت الجماعة حول الجفان قلّ الكلام ،  
وقرّت الأجسام ، واضطربت الأيدي وعملت الأفواه .

وأنا أرى هذا كله فيؤذني منظره ويقع من نفسي موقعا أليماً .  
ما أبعد ما بين هذه الأيدي الغليظة الحشنة قد تقلص جلدها وتقبض ،  
وهي تغوص بما فيها من الخبز غوصاً في القصاص فتصيب منها ما تستطيع ،  
وما بين تلك الأيدي الرقيقة الرفيعة الناعمة المترفة التي لم تكن تختد إلى  
الأطباق إلا هينة ، والتي لم تكن تمسّ ما في الأطباق إلا بهذه الأدوات  
التي يعرفها أهل المدن خاصة بل يعرفها المترفون من أهل المدن خاصة !

ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفاخرة التي يلقي فيها الطعام إلقاءً على  
عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى تزدده الخلق ! وكأن الطبيعة لم تودع  
هذه الأفواه حساً تجد به لذة ما تأكل وما تشرب ، وإنما اتخذتها طريقاً  
إلى الخلق ثم إلى الأجواف ، وما بين تلك الأفواه الصغيرة الضعيفة التي  
لم تكن تفتح إلا بمقدار ، والتي لا تلهم ولا تلتهم ولا تنسى بما فيها إلى  
خلق تزدرد ، وإنما تعطيل المضغ وتستمتع بما يمسه من الألوان ، ثم تنسى  
به على مهل إلى خلق تسيخه في أناة ورفق ، كأنما الأكل فن من الفنون  
لا بدّ فيه من الرويّة واصطناع المهل والأناة !

ما أبعد ما بين هذه الجماعة التي حشرنا فيها حشراً في فناء هذه الدار ،  
وما بين تلك الأسرة التي كنت أعمل عندها وأجد في خدمتها حين تجلس إلى  
المائدة لذة ومتاعاً يعدلان بل بريان على ما كنت أجد من اللذة والمتاع حين



أجلس إلى طعامي مع رفاقي من الخدم بعد أن يتفرق سادتنا عن مائدتهم  
أين أجد القدرة على أن أدفع يدي مع هذه الأيدي وأحرك في  
هذه الأفواه ! إنما أنا جالسة بين هؤلاء النساء أنظر إليهن ضيقة بهن  
وأتلهى عن الجوع بهذا الخبز الرقيق المستدير الواسع أحطمه بين يدي  
وأصيب منه قليلاً بين حين وحين . وأمتنا تصيب من الطعام في قعر  
واعتدال ، قد حال الحزن والحياء بينها وبين إرضاء حاجتها إلى الغذاء . وآخر  
واجهة ساهمة كأنها في أرض غير هذه الأرض ، وفي حياة غير هذه الحياة  
ثم تفرغ الجفان ويتفرق النساء جماعات ، ونهم نحن أن نتناول  
ناحية ، ولكننا لا نكاد نبلغ من ذلك ما نريد حتى يتركنا نسوة ثلاث  
يجلسن حيث نجلس ويأبين إلا أن يأخذن معنا في الحديث . تقف  
إحداهن وكانت امرأة تختصم على وجهها أواخر الشباب وأوائل الشيخوخة  
ويحتفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عنوبة مغرية وميل  
الفكاهة ظاهر : ما رأيت كالיום نسوة يستغنين بالأعين والآذان  
الأبدي والأفواه وعن الألسنة والحلق والأجواف .

ها أنتن أولاء بيننا منذ أمس ، وما سمعنا لكن صوتاً ولا عرفنا  
أمركن شيئاً . وما أنتن أولاء تستلذن معنا حول الطعام فلا تكدن تمده  
إليه بدءاً ولا تكدن تصبن منه حظاً ، كأنما يغذيكن النظر إلى الطعام  
وهن يلتصقن ويلتصقن ويترددن ، وكأنما يرضى حاجتكن إلى الحديث  
الاستماع للمتحدثات ! ثم أرسلت ضحكة سمعها من غير شك أبعد  
في الدار مكاناً ، وسمعها من غير شك من كان خارج الدار ، وانتهت  
بها في الجور استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء إلى المحبون . حتى

فرغت من ضحكها وجرت الهواء إلى جوفها جرّاً هو أشبه بالشهيق المثير  
قالت : أهذا شأنكن بالقياس إلى كل ما تحتاج إليه النساء من لذة وراحة  
ورضاً ؟ إنكن إذن لبائسات .

قالت هذا ثم التفتت إلى أمتنا فألقت عليها نظرة قوية تريد أن تثيرها  
إلى الحديث وتكرهها على الجواب ، ولكن أمتنا لم تنطق بحرف ولم تعرف  
كيف تلتقي هذا السيل المنهمر من اللفظ ، وإنما انعقد لسانها انعقاداً ،  
وظهر على وجهها اضطراب شديد ، ولم تثبت عيناها لعيني هذه المرأة  
الجريرة اللعوب فغضت بهما ، وأطرقت برأسها إلى الأرض كأنها الطفل الصغير  
يلج عليه الكبار في السؤال عن بعض أمره فيمنعه الحياء من أن يجيب .

هنالك التفتت هذه المرأة إلى وقالت : هذه أمك صامئة لا تقول ،  
وهذه أختك واجمة لا أمل في أن تفهم ولا في أن تجيب ، فنكلمني أنت  
فإني أرى في عينيك جرأة وعلى وجهك شيئاً يشبه القحة ، وما أظن أن في  
عينيك ملحاً . . . قولي من أنتن ومن أين تقبلن ؟ وما خطبك ؟  
وما إغراضكن عن الطعام ؟ وما إثاركن للصمت ؟ قلت ولم أستطع أن أدفع  
الضحك عن نفسي أمام هذا الهجوم المفاجيء الغريب ، وأمام إغراق  
هاتين المرأتين الآخرين في الضحك ، وإغراق أمتنا في الصمت ، وإغراق  
أختي في الوجوم : وأنت من تكونين ومن أين تقبلين ؟ وما أنت وسؤالك  
إيانا وإلحاحك علينا ؟

قالت مسرعة تتحدث إلى صاحبتها : ألم أقل لكما إنها « فارحة »  
ليس في عينها ملح ، وإنما هي التي تستمع لي وترد علي ! ثم التفتت  
إلي وقالت : تحقيق . . . أسمعين ؟ تحقيق . . . أنا مكلفة أن أخضعك  
له ، ستعرفين من أنا ، وستعلمين أنني نعودت التحقيق مع النساء



ومع الرجال أحياناً والإلحاح في السؤال على أولئك وهؤلاء . . . ثم أرسلت  
صحبكتها ورجعت شوقها . وسألتني ملحمة : من تكون ومن أين تقبل !  
وما زالت هذه المرأة تداعبنا وتلاعبنا عنيفة حيناً ولينة حيناً آخر ،  
جادة حيناً وهازلة في أكثر الأحيان ، وصاحبتناها تعيناتها على بعض  
ما نريد من ذلك ، حتى أننا إليهن وتحدثنا معهن شطراً من الضحى ،  
وعرفت من أمرهن ما رغبت في ألا تنقطع الصلة بيني وبينهن ما أقمت  
في هذه الدار ، وكن جميعاً من أهل المدينة التي أقبلنا منها ، قد بلغن  
هذه القرية معاً قبل أن نبلغها نحن بساعات ، أقبلن راكبات وأقبلن  
نحن سعيّاً على أقدامنا . فأما هذه المحققة التي كانت تسأل وتلمع في  
السؤال ، وتمازج وتغلو في المزاح ، فكانت امرأة عظيمة الخطر ، عرفت  
من أمرها فيما بعد ما كنت أجهل ، ونسيت أن اسمها كان شائعاً دائماً  
على جميع الألسنة وفي جميع الأنحاء لا في المدينة وحدها بل في كثير  
محيط بها من القرى والعزب والضياع .

كان اسمها « زنوبة » وكان تاريخها حافلاً بالخطوب والأحداث ،  
كان شبابها مغامرة كله وفتنة لنفسها ولكثير من الناس . كانت تجيد  
الرقص وتفتن به شباب المدينة ، وتفتن هؤلاء الشباب الذين كانوا يغلبون  
على المدينة في فصل الشتاء ليستغلوا في معمل السكر . وكانت تفيد من  
فصل الشتاء هواً كثيراً ومالاً كثيراً وصوتاً بعيداً . حتى إذا تولى عنها  
الشباب شيئاً وأخذت تدنو من الكهولة قليلاً قليلاً آثرت ظاهراً من القصد ،  
وتكلفت شيئاً من الاعتدال ، وأسدت على مجونها ودعابتها ستاراً رقيقاً  
تستطيع بعض الأبصار أن تنفذ إلى ما وراءه فتدل أصحابها على ما يبتغون .

ثم اتصلت بالشرطة ورؤسائها في المدينة . وكانت وسيلتها إلى هذا  
الاتصال معرفتها للشبان ، ومخالطتها للرجال ، وانسلاطها إلى بعض الدور  
سماحها لكثير مما يلقي من الحديث ، وعلمها بكثير مما يقع من الحوادث  
لم من الخطوب . فكانت عيناً من عيون الشرطة تنفذ إلى كثير جداً مما  
تنفذ إليه عيون الرجال ، وكانت تفيد من ذلك مالا ، وتكسب من ذلك  
أمنية ، فكان الناس يخافونها ، ويتلطفون لها . وكانت الشرطة تستعين بها  
بتعانة خاصة خصبة حين يصرع صريع بالليل ، ويبحث الأمور وأعوانه  
القاتل فلا يظفرون به ، هنالك كانت تنقل إليهم ما تسمع من  
أحاديث في بعض أندية الشباب وفي داخل كثير من البيوت ، وحين  
تسعى للصوص على دار من الدور ثم تعمى آثارهم وأخبارهم على الشرطة .  
كانت أنفع ما تكون للشرطة وأقدر ما تكون على إيعاتها حين يراحم  
القاصرون أو الكوليرا أو أي وباء من هذه الأوبئة أهل المدينة وما حولها  
القرى ، وحين تريد الحكومة أن تستكشف المرضى وتعزلهم في تلك الخيام  
كان يكرهها الناس أشد الكره ويفرون منها أكثر مما يفرون من الموت .  
هنالك كنت ترى « زنوبة » حركة متصلة كأنها التحلة ، لا تستقر  
نهداً ولا تعرف السكون والاطمئنان . هي في كل شارع وفي كل حارة  
كل زقاق وفي كل بيت ، وتقاله الصحة من ورائها نجوب الشوارع  
أزقة والحارات وتختطف المرضى من بيوتهم اختطافاً . وفي تلك الأوقات  
الناس ينفذون زنوبة أشدّ اليقظ ، ولكنهم كانوا يضطربون إلى  
أحاديثها واحتمالها ، يسمعون لها ويلعنون الوباء لأنه لم يحسبها ولم يحملها على  
النقالة ولم يضطرها إلى هذه الخيم التي تضطر إليها الناس .



وقد جمعت زئوبة من كل هذه الحرف مقداراً لا بأس به من المال . فلما تقدمت بها السن بعض الشيء أخذت تستثمر ما جمعت وتنميته . وقد سلكت إلى ذلك طريقين : فهي من ناحية مرابية ، تقرض الجنيه بثلاثة أمثاله منجمة على العام ، وتشتري من الأسواق في المدينة والقرى ما تستطيع شراؤه من الحب رخيصاً ثم تباعه بين الفقراء والباثسين ، تشتط عليهم في الربح لأنها تعبر عليهم في اقتضاء الحق . وقد زهد الشباب فيها وقل نشاطها إلى اللهو الجري . فبحثت ثم بحثت ثم اختارت لنفسها رجلاً من الحفراء غريباً عن المدينة وفد إليها عند حين . فوثق البنية طويلاً لمخساً ، مخيف الصوت . ولكنه على ذلك ضعيف النفس ، سيء الخلق مدخول الضمير ، فانتحلته زئوبة لنفسها زوجاً أو خليلاً ، وعاشت معه عيشة يقرها القانون وتكرها الأخلاق والدين ، ويعفها أهل المدينة أشد العف . وهي حين رأيها لأول مرة كانت قادمة على القرية التي كنا في تشتري ما نستطيع شراؤه من القمح والذرة والفول ، ثم لنعود به إلى حيا تمنص به أموال الفقراء والمعدمين .

ولم تكن « خضرة » أقل خطراً من زئوبة ولا أهون شأنًا ، وإنما كان مثلها معروفة بعيدة الصيت ، يتحدث الناس بها وبأبنائها حين تخرج المدينة وحين تعود إليها ، ويشقى بها الرجال والنساء جميعاً ، ويسعد الرجال والنساء جميعاً أيضاً .

كانت دلالة ، نفذ إلى العاصمة من حين إلى حين ، فتجلب مقداراً غير قليل من هذه العروض الخفيفة السيرة الرخيصة التي مع ذلك فتنة للنساء وشقاء للرجال . لم يكن في المدينة بيت من

إلا وبابه مفتوح لخضرة تدخله جهراً وتدخله سراً أيضاً . ونفوس سيدة البيت مفتوحة لخضرة أيضاً تتلقى أحاديثها وتسمع أنباءها ، وقد تقضى إليها بالأحاديث ، وقد تحملها الرسائل والأنباء . وكان نشاط خضرة يشد ويعظم إذا كان الشتاء وجزت في النيل بواخر كوك مصعدة وهابطة ، فقد كانت خضرة تذهب إلى القاهرة وتعود ومعها ما تشتري من البضائع والعروض ، تصطبغ هذه البواخر لأن أجور النقل فيها كانت يسيرة للدرجة الثالثة ، ولأنها كانت تستطيع أن تستصحب فيها من الحفائب والمتاع ما لم تكن تستطيع أن تستصحبه في القطار .

كانت إذا عادت إلى المدينة تسمع بها الناس ، وانتظر النساء مقدمها عليهن وزيارتها لهن . وكانت أسعد السيدات هذه التي نظرن بزيارتها الأولى تسبق إلى خير ما عندها من ضرور الأقمشة على احتلاخها ، ومن صنوف الأعطار ، ومن هذه الأدوات اليسيرة الهينة التي يحتاج إليها النساء ويتنافسن فيها ، ومن أنواع الخرز بنوع خاص ، ومن هذه الحلقات الزجاجية المختلفة التي يتحدها النساء حلياً لأذرعهن يعالجن لبسها علاجاً شديداً دقيقاً خطراً ولها يفرغن من هذا العلاج دون أن تكون إحداهن قد أحدثت في يدها أو في ذراعها جرحاً بليعاً . وكان الأسبوع الأول لعودة خضرة من القاهرة عيداً متصلاً في البيوت للنساء والأطفال جميعاً ، أولئك يسعدون بما تعرض عليهن من عروض الزينة والمتاع ، وهؤلاء يسعدون بما تجلب لهم من الحلوى وجوز الهند ، ولا سيما هذه الحلوى التي كانت تجلبها خضرة من القاهرة والتي لم يكن من الممكن ولا من اليسير أن تصنع في المدينة . فقد كانت رقيقة لينة لا تشقى بمضغها



الأضراس ، وتجد فيها الأفواه والحلوى لذة لا مشقة فيها ولا عناء كهذه اللذة التي تجدها فيما يصنع في المدينة من الحلوى المسمية أو الحصية الغليظة اليابسة التي يتعاون على إذابتها الريق والأضراس واللسان فلا تبلغ منها ذلك إلا بمشقة وجهه .

وكانت خضرة تحمل إلى الفتيات النواهد فتنة لا تشبهها فتنة بهذه المناديل الملوثة التي كانت تجلبها لهن والتي كن يفتتن في إدارتها حول رموسهن وفي اتخاذها سجواً فتانة خلابة لشعورهن الثقيل . ولا تذكر هذه الصفات أو هذه الخيوط التي تنظم فيها قطع دقيقة رقيقة ضيقة من المعدن والتي توصل بالصفائر ، وبصفائر الفتيات النواهد خاصة ، يكون لها على ظهورهن منظر حسن ، ويكون لها رنين حلو إذا مشين أو أتين بعض الحركات . وكان الرجال يحتملون عودة خضرة من القاهرة باسمين بل مختلفين أول الأمر ، يجدون في ذلك رضاء بريئاً وتلبية نقية للنساء والفتيات ، فإذا مرت أيام وكثر تردد خضرة على البيوت واشتد طمع النساء فيما تعرض عليهن من المتاع ، وظهرت رغبة النساء ملححة على وجوههن وفي حديثهن وفي تنكرهن للرجال حين يظهرون تمعناً أو إباء ، ضاقوا بخضرة أشد الضيق ، وودوا لو تذهب مرة إلى القاهرة فلا تعود .

وكانت خضرة إذا فرغت من إرضاء نساء المدينة على اختلافهن في الطبقة والثراء ، تنقلب بما يبقى لها من سقط المتاع بين ما يحيط بالمدينة من قرى الريف . وهي في ذلك اليوم الذي لقيتها فيه كانت تزور القرية ومعها حقيبتان أو ثلاث فيها من هذه الدوائر الزجاجية ومن الخرز والمناديل الملوثة ما لم تقبله المدينة وما تتلقاه القرى بلهفة شديدة ، وما لعله

يؤرق ليل كثير من الريفيات ويملاً أحلام كثير من عذارى الفلاحين . ومن الخطأ أن يظن أن « نفيسة » كانت أقل شهرة من صاحبيتها أو أيسر من شأنها عند أهل المدينة وعند أهل الريف . كانت متقدمة في السن قد بعد عهدها بالشباب ، وتركت الشبخوخة في وجهها وصوتها وجسمها كله آثاراً قبيحة منقورة للنفوس ، ولكنها على ذلك كانت « خيلة » في كل بيت ، صديقة لكل امرأة . كانت عرافة تقص ما كان وتصف ما هو كائن ، وتنبئ بما سيكون . وكانت لها صلة قوية بالجن والشياطين ، تسعى بالرسائل بينهم وبين النساء وتستخدمهم في كثير مما يشغل حياة المرأة الجاهلة الساذجة التي لا تزال تؤمن بأن سلطان الجن على الناس لا حد له . هذه ضيقة زوجها لأنه يخونها أو يؤثر عليها ضرراً فهي تستعين بنفيسة لتسلط عليه غفرياً من الجن يصده عن غلبته أو عن زوجته . وهذه تحس من زوجها نشوزاً أو إعراضاً ، فهي تستعين بنفيسة لتتخذ لها من الطلسمات ما يعطف عليها زوجها ويجعله قعيدة دارها . ولم تكن نفيسة أقل تأثيراً في نفوس الرجال والشبان منها في نفوس النساء والفتيات ، فقد كانت تحسن استشارة الودع وسؤاله عن الغيب ، وقد كانت تحسن استعطاف النساء إذا نفرن أو أعرضن ، وقد كانت تحسن تسخير الجن في قضاء ما يلتوى من الحاجات . وكانت نفيسة مشغولة دائماً ، لا تكاد تسريح من السعي بالرسائل والحاجات بين رجال المدينة ونسائها وبينهم جميعاً وبين الجن والشياطين . ولكن شهرتها بذلك قد تجاوزت المدينة ووصلت إلى القرى وتسامع بها أهل الريف فأخذوا يسعون إليها ، ثم أخذت هي تسعى إليهم وتنقل بينهم بسحرها



وطلساتها وودعها . وهي حين رأيها كانت تزور القرية لتحمل إلى أهلها بعض ما يحتاجون إليه من أنباء الغيب .

ولم يكده يتصل الحديث بيننا وبين هؤلاء النسوة حتى كانت نفيسة أسرعهن إلى تفوسنا ، وأحرصهن على أن نمتلكنا وتصل بيننا وبين أصدقائها من الجن والمفاريت ، لم تجد في ذلك مشقة ولم تتكلف له جهداً . فهذه الفتاة الذاهلة التي لا تكاد ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تجيب خليقة أن تلقت العجوز الساحرة إلى نفسها ، وقد فعلت . . . فما أكثر ما تلح هذه العجوز في السؤال لتعرف ما بهذه الفتاة ! والفتاة لا تجيب ، وأما أشد منها حرصاً على الصمت وإغراقاً فيه . والسؤال يتجه إلى دونهما ، فأضطر إلى أن أزعم أن بأختي علة قد أعيت الطبيب ، وداء لا نعرفه ولا نجد له دواء ، وما أيسر ما تفض السرة وينثر منها الودع على الأرض ! ثم ما أسرع ما تعمل فيه يد نفيسة جمعاً وتفريقاً ، وضماً ونثراً ، تلامم بينه وتخالف ، وتتخذ منه أشكالاً تقرأ فيها من أنباء الماضي والحاضر والمستقبل أعجب العجب .

إني لأراها الآن وقد مضت أعوام طوال منذ ذلك اليوم وهي تنظر في الودع وتطيل النظر ، ثم تظهر على وجهها هذه الآيات التي تدل على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع . وإني لأسمع صوتها المظم الذي كان هامساً دائماً مهما يرتفع . وإني لأحفظ جملها منذ ذلك اليوم ما نسيها ولن أنساها . وكيف أنساها وقد صدقها الزمان ؟ نظرت إلى ودعها . ثم أطالت النظر فيه ، ثم رفعت عنها إلى أختي فأطالت النظر في وجهها ، ثم عادت إلى الودع فأثبتت عنها فيه ، ثم رفعت رأسها وهي تقول للفتاة : إن أمرك يا ابني لعجيب ، إني أراك بين اثنين : أحدهما

يحبك وسيؤذك ، والآخر آذاك وسيحبك ، وإني لأحاول أن أفهم فلا أستطيع . والرأي لك يا ابني أن تستشير سادتنا من الجن أو سادتنا من الأولياء . . . وما أرى أن هذا عليك عسير ، ففي هذه القرية القريبة منا والتي تستطيعين أن تبلغيها في ساعة وبعض ساعة ما تحيين : فيها مقام سيدنا فلان ، وإنه ليأتي بالأعاجيب ، وفيها دار فلاة وإن قريبتها من الجن ليحدث بالأعاجيب أيضاً . ولم تكده نفيسة تنطق بالحيلة الأولى من حديثها حتى وثبت أماناً كأنما دفعت إلى الثوب دفعاً آلياً ، وانطلقت مسرعة فلم ترها إلا بعد وقت طويل .

## ٧

ها أنت ذا أيها الطائر العزيز تنشر في الجو المظم الساكن نداءك السريع البعيد كأنه استغاثة المستغيث . . . ما خطبك ؟ وما أباؤك ؟ وما الذي يغريك بي ويسلطك علي ؟ ! لا أكاد أمضي في النوم حتى تسرع إلى فتوقظني ، كأنما أخذت على نفسك أو أخذ غيرك عليك عهداً ألا تخلني بيني وبين النوم ، وكأنما كلفت نفسك أو كلفك غيرك أن توقظني إذا تقدم الليل لتظهرني من الأمر على ما كان خليقاً أن يفوتني إن استسلمت للذة الأحلام . . . ! ابعت نداءك سريعاً بعيداً أولاً تبعته فقد أبقتني ، وما أرى أني سأعود إلى النوم دون أن أشهد شيئاً كالذي شهدته أمس حين كانت أختي ماثلة ذاهلة كأنما تنتظر أخبار السماء . إني لأشعر بأنني سأراها ماثلة ذاهلة حيث رأيها أمس ، وإني لأشعر بالخوض إليها ، ولكن نداءك لا ينقطع ، إن لك لشأناً . . . !



ماذا ! إن جو الليل المظلم الساكن المهيب ليس خالفاً لك هذه الليلة كما تعود أن يخلص من قبل . ماذا أيقظ الطير ؟ فإني لأسمع خفق أجنحتها ، وأحس كأنها متشرة قد خرجت من أوكارها حائرة مضطربة في هذا البحر الخفيف . ماذا أيقظ الكلاب ؟ إني لأسمع نباحها قريباً متصلاً بعيداً فيه إلحاح وترجيع كأنها تدعو من لا يسمعهما .

ماذا أيقظ الناس ؟ إني لأحس حركة خارج الدار ، وإني لأسمعهم يتدافعون ويتنادون ، وإني لأشعر كأنهم يسرعون إلى غاية لا أعرفها .

ماذا أيقظ من في الدار ؟ إن الحركة من حولي لتكثر وتختلط وتشتد ، وإني لأشعر بالفزع قد انتشر في الجوكما يتشر الدخان الكثيف وهذا نداءك أيها الطائر العزيز ما زال متصلاً سريعاً بعيداً ، كأنك توكّل بإيقاظي وحدي ، وإنما وكلت بإيقاظ الناس جميعاً والأحياء جميعاً انظر ! إن كل شيء قد استيقظ من حولك ، ولكن نداءك ما زال متصلاً سريعاً بعيداً . أتريد أن تتحدث إلى النجوم ؟ ولكني أنهض لكل ما أحس حولي من حركة وضجيج وعجيج واضطراب ، فأسال أختي هذه المائلة الداهلة : ماذا حدث ؟ ولكنها لا تجيب كأنها لم تسمع شيئاً . فإخلفني حتى وعيظ ، وأهزها هزاً عنيفاً وأنا أصبح بها : ماذا ! ألا تسمعين ؟ ألا ترين ؟ هنالك تنبه وتجيبي في شيء من الرجل : ماذا تريدن ؟ فأتركها مستيشة منها وأهبط فناء الدار حيث اجتمع النساء يتساءلن ويتجاوبن ، ويشند بينهن لفظ مختلط لا يكاد ينقضي .

هنالك أجد أمنا بين هؤلاء النساء ، شامدة كالغائبة ، ومستيقظة كالنائمة ، نسمع ولا نقول . فإذا سألتها عما حدث أجابتني في صوت

هادئ حزين : زعموا أن رجلاً قد قُتِلَ قريباً من القرية يقال له عبد الحليل ، وقد جاء الصريخ إلى الممدة فأيقظ رجاله وهو يستحثهم للتماس القاتل . وقضينا بقية الليل ساهرات نسمع ما يصل إلينا من الأخبار التي إن ابتدأت فلا نهاية لها ، وهي أخبار القتل في المدن والقرى وفي الحقول وعلى الطريق العامة . وقد زعم من حدث من أهل الدار أن مقتل هذا الرجل الذي صرع الليلة قد كان أمراً محمواً .

لقد كان هذا الرجل شيخ الخفراء في القرية ، وكان قوياً شديداً البأس عظيم السطوة . وقد حمى القرية من اللصوص والمعتدين ، وكانت له في القوم آثار لم تُنس ، فهم يطلبونه بها . وقد اضطربت القرية منذ ليال لأن هذا الرجل أقبل وقد انقضى من الليل أكثره على بيت من البيوت ، فجعل بطرق بابيه طرقة عنيفاً ، ويدعو صاحبه بصوت كأنه الرعد أن أفتح أيها المجنون فإن اللصوص قد اقتحموا عليك الدار . فذعر أهل البيت لهذا الطرق وهذا النداء ، وأسرع الرجل إلى الباب ، فما رآه إلا شيخ الخفراء يرق ويرعد ويلج في النذير ، ثم دخل الدار وطاف بحجراتها وغرفاتها يلحتمس اللصوص ولكنه لم يجد أحداً . وقد استيقظ الناس واجتمعوا حوله وحول صاحب الدار ، وهو يقسم ويقلظ في القسم لقد رأى اللصوص يقتحمون الدار اقتحاماً .

منذ تلك الليلة تحدث أهل القرية بأن شيخ الخفراء قد تعرض للموت ، وأنه إنما روع أهل تلك الدار ليلجأ إليهم ويأمن عندهم من طالبيه ، ومنذ تلك الليلة استيقن أهل القرية أن قوماً قد نذروا دم شيخ الخفراء ، وليسوا بمقتلعين عنه حتى يقتلوه . وبها هم أولاء قد وفوا بالنذر



وَقَتَلُوا عَبْدَ الْجَلِيلِ. وَهَاهُوَذَا الْعَمْدَةُ يَفْرَقُ رَجَالَهُ فِي كُلِّ صَوْبٍ ، بِأَمْرِهِمْ  
بِاقْتِحَامِ هَذِهِ الدَّارِ ، وَبِالْبَحْثِ عَنْ فُلَانٍ وَالْقَبْضِ عَلَى فُلَانٍ وَالتَّوْتُقِ  
مِنْ فُلَانٍ . وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ هَائِجَةٌ مَائِجَةٌ تَسْأَلُ وَتَبْحَثُ ، وَتَسْتَقْصِي وَتَرْتَاحُ .  
وَهَذِهِ جِثَّةُ عَبْدِ الْجَلِيلِ طَرْمَحَةٌ غَيْرُ بَعِيدٍ مِنَ الْجَسْرِ ، قَدْ فَارَقَتْهَا  
الْحَيَاةُ بَعْدَ احْتِضَارٍ طَوِيلٍ ثَقِيلٍ ، وَقَدْ قَامَ عِنْدَهَا الرِّجَالُ يَحْفَظُونَهَا فِي  
مَكَانِهَا حَتَّى تَأْتِيَ الشَّرْطَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَحَتَّى يَأْتِيَ الْمُحَقِّقُونَ . وَقَدْ أَقْبَلُوا  
جَمِيعاً بَعْدَ أَنْ ارْتَفَعَ الضُّحَى ، فَأَقَامُوا حَوْلَ الْجِثَّةِ حِينًا يَسْأَلُونَ وَيُشْرَحُ  
الطَّيِّبُ . ثُمَّ أَقْبَلُوا نَحْوَ الْقَرْيَةِ وَنَسَاءَ الدَّارِ مَشْرِفَاتٍ يَنْظُرْنَ إِلَيْهِمْ ، وَهَمَّ  
يَسْعَوْنَ إِلَى بَيْتِ الْعَمْدَةِ لِيَشْرَبُوا الْقَهْوَةَ ، وَيَمْضُوا فِي التَّحْقِيقِ ، وَيَصِيبُوا  
شَيْئاً مِنْ طَعَامٍ .

وَأَنَا مُشْرِفَةٌ أَنْظُرُ مَعَ النَّاضِرَاتِ . وَلَكِنْ مَاذَا ؟ إِنِّي لِأَتَرَجَعُ مُسْرِعَةً  
وَقَدْ اضْطَرَبَ قَلْبِي اضْطِرَاباً لَا يَكَادُ يَسْتَقِرُّ مَعَهُ فِي صَدْرِي ، وَقَدْ تَكَلَّفْتُ  
جَهْداً عَنيفاً لِأَحْبِسَ صَبِيحَةَ كَادَتْ تَبْعَثُ مِنْ فَمِي ، وَهَذِهِ أُمِّي تَجُرُّنِي  
إِلَيْهَا لَا تَقُولُ شَيْئاً وَلَكِنَّا نَهْطُ مَعِي فَنَاءَ الدَّارِ ، ثُمَّ تَهْدِنِي بَعْضَ الشَّيْءِ ،  
ثُمَّ تَقُولُ لِي كَالْهَامَةِ : إِيَّاكَ أَنْ تَظْهَرِي أَوْ أَنْ تَدْعِي هَذَا الْمَكَانَ فَإِنَّهُ  
وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتَ لَمْ يَنْصَرَفْ حَتَّى يَسْتَصْحِبَكَ . ذَلِكَ أَتَى كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ الْمَأْمُورَ .  
لِمَاذَا أَكْذَبْتُ نَفْسِي ! لَقَدْ هَمَمْتُ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنْ أَسْعَى إِلَيْهِ وَأَنْ  
أَسْأَلَهُ عَنْ خَدِيجَةٍ ، وَأَنْ أَلْحَ عَلَيْهِ فِي أَنْ يَسْتَصْحِبَنِي لِيُردِّيَ إِلَى تِلْكَ  
الْحَيَاةِ النَّاعِمَةِ وَلِيَحْمِيَنِي مِنْ هَذَا الظَّلَامِ الَّذِي كُنْتُ أَدْفَعُ إِلَيْهِ عَلَى غَيْرِ  
إِرَادَةٍ وَلَا رَأْيٍ .

نَعَمْ ! لَقَدْ هَمَمْتُ بِهَذَا كُلِّهِ ، وَلَقَدْ كَدَدْتُ أَفْعَلَ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ

أُمِّي وَمَا كَانَتْ تَسْتَصْحِبُ مِنْ بَوَسٍ قَدِيمٍ ، وَرَأَيْتُ أُخْتِي وَمَا كَانَتْ  
تَسْتَقْبِلُ مِنْ بَوَسٍ حَدِيثٍ ، فَأَثَرَتْ شَقَاءَ هَاتَيْنِ الشَّقِيقَتَيْنِ عَلَى مَا كُنْتُ  
أُحِبُّ لِنَفْسِي مِنَ الْخَيْرِ ، وَبَقِيتُ مَعَهُمَا أَنْتَظِرُ مَا تَصْمُرُ لَهَا الْأَيَّامُ .

## ٨

أَمَنَةٌ . . . أَمَنَةٌ . . . أَقْبَلِي . هَذَا صَوْتُ أُمِّي يَنْشِيءُ إِلَيَّ ، وَقَدْ انْتَحَيْتُ  
نَاحِيَةً مَعَ زُنُوبَةٍ وَخَضِرَةٍ عَلَى السَّطْحِ ، نَتَحَدَّثُ أَلْوَاناً مِنَ الْحَدِيثِ ، وَأُخْتِي  
جَالِسَةٌ غَيْرُ بَعِيدَةٍ قَدْ شَغَلَتْ عَنَّا بِمَا يَمْلَأُ نَفْسَهَا مِنْ هَمٍّ وَحُزْنٍ ، فَإِذَا  
سَمِعَتْ الصَّوْتَ أَسْرَعَتْ إِلَى أُمِّي فِي النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى مِنْ سَطْحِ الدَّارِ ، فَإِذَا  
هِيَ قَائِمَةٌ قَدْ ظَهَرَ عَلَيْهَا النِّشَاطُ وَانْجَلَتْ عَنْ وَجْهِهَا سَحَابَةُ الْحُزْنِ الَّتِي  
كَانَتْ تُغَشِّيهِ ، وَهِيَ تَبْتَسِمُ وَتَشِيرُ بِيَدَيْهَا وَتَقُولُ لِي : انْظُرِي انْظُرِي ! هَذِهِ  
وَاللَّهِ إِبِلٌ « بَنَى وَرَكَانٌ » . فَأَنْظُرُ فَأَرَى أُعْرَابِيًّا كَأَنَّهُ الشَّيْطَانُ وَقَدْ أَنَاخَ  
قَرِيباً مِنَ الدَّارِ جَمْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ وَأَخَذَ يَحْطُ عَنْ أَحَدِهِمَا بَعْضَ الْأَثْقَالِ .  
أُمِّي مُسْتَبْشِرَةٌ مَهَلَّةٌ تَشِيرُ وَتُلَحُّ فِي الْإِشَارَةِ وَتَقُولُ : أَلَمْ تَعْرِفِي خَالَكَ  
نَاصِراً ؟ أَلَمْ تَعْرِفِي هَذَيْنِ الْجَمْلَيْنِ ؟ عَرَفْتَ خَالِي ، فَمَا أَكْثَرَ مَا كُنْتُ أَلْقَاهُ  
أَيَّامَ الطُّفُولَةِ وَالصَّبَا ، وَمَا أَكْثَرَ مَا كُنْتُ أَخَافُهُ حِينَ أَلْقَاهُ ، وَأَكْرَهُ  
مِنْهُ هَذَا الْعَنْفَ الَّذِي يَسْتَدِرُّ كُلَّ مَنْ اتَّصَلَ بِهِ ، وَهَذِهِ اللَّهْجَةُ الْقَاسِيَةُ الَّتِي  
يَمْتَنَزِرُ بِهَا حَدِيثَهُ ، وَهَذَا الصَّوْتُ الْقَاطِعُ الَّذِي يَلْقَى إِلَيْكَ الْكَلِمَاتِ فِي  
حَزْمٍ وَعِزْمٍ وَشِدَّةٍ لَا تَقْبَلُ مُرَاجَعَةً وَلَا تَسْمَحُ بِجِدَالٍ !  
نَعَمْ عَرَفْتَ خَالِي نَاصِراً ، وَذَكَرْتُ أُمِّي كَثِيراً مَا كُنْتُ أَنْقِيهِ إِذَا لَقِيتُهُ ،



ولا أستجيب لدعائه إذا دعاني إلا كارهة ، ولا أطمئن إلى ما كان يظهر لي من مودة وعطف وحنان ، ولا أقبل إلا راغمة ما كان يقدم لي أحياناً من البلح والعجوة ، يريد أن يشمقني ويرضاني .

نعم ! عرفت خالي قاصراً ، وذكرت أنني كنت سيئة الظن به ، شديدة النفور منه ، وأنني كنت ألوم نفسي أحياناً على سوء ظني وشدة نفوري . حتى إذا صُرع أبونا ورأيت كيف استقبل أمي بأنباء هذا المصراع وكيف قسا عليها وعلينا ، ولم يفكر في أنها أيم وفي أننا يتيمان ، وإنما فكر في الأسرة وحديث الناس عنها ، وما يجزر عليها هذا الخطب من عار . . .

ثم لم تكده تمضي أيام حتى أقبل ذات صباح ، مظالم الوجه قاصي الملاحظ جاني اللفظ ، فأقنع أمنا بوجوب الرحيل ، وأنبأها بأنه سيعود لهذا الرحيل عدته وسيصحبنا حتى يعبر بنا البحر ويبلغنا مأمناً في قرية من قرى الريف .

ثم جاء هذا اليوم الذي أخرجنا فيه من دارنا ، وأبعدنا فيه عن قريتنا وثقانا فيه من أرضنا ، وصحبنا إلى قرية من هذه القرى المنتشرة وراء البحر ثم أسلمنا إلى القضاء ، وانصرف عنا راجعاً إلى حيث ينعم مع الأسرة بالدعة والخفض وبالأمن والهدوء .

منذ ذلك اليوم لم أشك في أن رأي فيه لم يكن خاطئاً ، وأن حكماً عليه لم يكن قاسياً ، وأن نفوري منه لم يكن إلا صورة صادقة لما ينبغي لهذا الرجل الخليط في قلب فتاة ضعيفة بريئة وادعة ، لم تبجن على أحد شراً ، ولا تفهم أن يبني عليها أحد شراً . وكانت أمي وأختي تتبعانه

يبصر بهما محزونين لفراقه أشد الحزن ، وكأنه كان يمثل في نفسيهما صورة الوطن الذي نفينا عنه . أما أنا فكنت أنظر نحو الغرب الذي كان يوجه بصره شطره ، ولكني لم أكن أراه لأنني لم أكن أحفل به .

إنما كنت أحاول أن تنفذ عيني من هذه المسافة البعيدة والأمد المنسح إلى هذه القرية المطبقة التي أخرجت منها إخراجاً ، لعل أرى دارنا ، ولعل أرى هذا الفناء المنبسط أمامها ، والذي كنت ألعب فيه مع أترابي من الغلمان والفتيان ، ولكني لم أكن أرى القرية ولم أكن أرى الدار ، وإنما كنت أرى هذه المضارب المرتفعة في السماء بعض الشيء ، وأقدر أن قريتنا تقوم هناك على هضبة من هذه المضارب . وكنت أرى هذا الخط من الماء يحول بيننا وبين هذا السهل الجميل الذي ينسبط من دون هذه المضارب ، والذي كنت لا أمضي فيه قليلاً حين نفينا من قريتنا إلا أحسست كأنني أترك فيه قطعة من نفسي أنثرها في أرضه الخضراء ثراً .

نعم ! عرفت خالي قاصراً وهو قائم بإزاء جليله بعد أن وضع أثقاله كأنه الشيطان ، وما تصوره قط إلا شيطاناً . ومنذ هذه اللحظة التي رأيته فيها يضع أثقاله وسمته فيها يسأل عن صاحب الدار ، لم أزد إلا يقيناً بأنه شيطان . سألت خالتنا عن صاحب الدار . وكان رجال العملة قد دخلوا عليه فأنبأوه بأن رجلاً أعرابياً عليه مظاهر القوة والبأس والوقار والثراء ، قد أقبل يسأل عنه ، فخفت العملة لاستقبال ضيفه ، وما زلت أراه يستقبل الأعرابي باسماء وادعاء ، والأعرابي يحبه في غلظة وحقرة ، ثم يقول له متعالياً : إن النبي قبل الهدية يا عملة . يقول ذلك ويشير إلى أثقاله التي حطها عن جليله إشارة المكبر لها الدال بها ، والعملة يدعو



بعض رجاله ويشير إليهم أن أحلوا هذه الأثقال وأريحوا هذين الحملين. ثم بدعوضيفه الأعراي، رفيقاً به شاكراً له، إلى الراحة والدخول معه إلى الدار. وقد أطمأنت الدار بالأعراي، ولقي من كرم مضيفه وبشاشته ما أرضاه، فلما مضت ساعة أو ساعات والناس مجتمعون حول عمدتهم يخوضون فيما تعودوا أن يخوضوا فيه من الحديث، قال فجأة: إن لنا عندك ودائع يا عمدة، فاردّد علينا ودائعنا! قاله بأمر أن تؤدّي الأمانات إلى أهلها. قال العمدة: ودائعك محفوظة لك، مردودة عليك يا شيخ العرب، فما ذاك؟ قال الأعراي: امرأة أقبلت منذ أيام ومعها فتاتان، سألتك الضيافة فأويتهما وأويت ابنتها وأحسن لقاءهن وأكرمت مثواههن، ونحن أعرف الناس بحق الكرام. قال العمدة: وما أنت وهذه المرأة وابنتاها؟ قال الأعراي: هي أختي. قال العمدة: فقد نزلن على الرحب والسعة، وما فعلت إلا ما كان يجب على، وما تقع هذه الدور إذا لم تفتح لإيواء الغرباء! ولكن ودائعك يا شيخ العرب لن تردّ عليك حتى تقيم بيننا حيناً فتسمع منا ونسمع منك؛ فإن حديث الأعراب يلذنا ويرضينا، وقد بعد عهدنا به منذ رحل عنا سعيد وأصحابه، وكانوا قد نجسوا في ظاهر القرية شهراً، ثم ارتحلوا لا عن قلى ولكن عن رغبة في الرحيل. واتصل الحديث بين العمدة وأصحابه وبين هذا الأعراي حتى انقضت ساعات السمر.

أما أنا فلم أطعم النوم في هذا الليل الطويل الثقيل؛ لأن أختي لم تطعم فيه النوم، ولم يحتج طائري العزيز إلى أن يوقظني بندائه السريع البعيد، ولم أسمع منه هذا النداء كأنه عرف أني ساهرة مؤرقة فلم يحتج إلى تنبيه، فانطلق في الجو الفسيح بينه وبين من الذين لم تورقهم الهموم والأحزان.

عدت إلى أختي كئيبة ضيقة الصدر متكلفة مع ذلك أن أختي ما أجده من الكآبة وضيق الصدر، فأنبأها بمقدم خالتنا وبأننا مرتحلات في أكبر الظن إذا أسفر الصبح، وجعلت أزيّن لها الرحيل وركوب الإبل واجتياز القرى والنظر إلى هذه الحقول المنبتة بيتنا وبين البحر، والنظر إلى هذا الخط من الماء الذي يفصل بيتنا وبين بلادنا في الغرب، ننظر إليه مقبلات عليه بعد أن نظرنا إليه مدبرات عنه، ثم نعبّر هذا البحر ونعشى على هذا السهل الجميل النضر الذي تلتقى فيه أرض الصحراء المحبذة وأرض الريف المخصبة؛ ثم نصعد تصعيداً هيناً كأنما نرقى في الدرج إلى هذه الهضبة الجميلة التي تقوم من ورائها قريننا وادعة هادئة كأنها تحتمى بها من كل طارق يأتيها من الشرق. أنا أزيّن لها هذا كله بلساني، وأنكلف لها مظهر المراحة له المغتبطة به المقبلة عليه في سرور ولذة وشوق، والله يعلم إن كنت لحزونة أشد الحزن مبتشة أشد الابتاس، تنازعني نفسي إلى ما وراءنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التي ترامت أطرافها، وامتدت على ضفة النيل هادئة وادعة ناعمة بما فيها



من حضارة وترث وراث . والله يعلم أني لم أكن مقبلة على هذا القرب الذي سأدفع إليه إذا أسفر الصبح إلا برغمي وعلى أشد الكره مني . ما كنت أسغل بالحقول المنيعة ، ولا أجد شوقاً إلى هذا الخط من الماء ، ولا أجد كلفاً بهذا السهل الجميل النضر ، ولا أجد رغبة في التصعيد حين إلى هذه الحضية المهيبة ، ولا أجد حنباً إلى هذه القرية الوادعة التي درجت فيها . إن هناك لحقولاً أخرى منيعة نحو الشرق تنحدر إلى المدينة في دعة وفور وتكسر جيل ، وإن هناك لخطاً عريضاً من الماء أشد روعة وجمالاً وإثارة للسحر في القلوب من هذا الخط الضئيل النحيل يسمونه بحراً وما هو بالبحر ، وإنما هي قناة لا يصح أن تذكر مع النيل . وإن هناك لنوراً شاهقة واسعة مرفقة تحيط بها الحدائق البديعة ، وتلد الإقامة فيها والحياة بين غرفاتها وحجراتها واللهم بين ما يحيط بها من الأشجار والأزهار . وإن هناك لقناة جميلة وسيمة رقيقة هي التي أحزن إلى لقاءها وأتحرق على تجديد العهد بها . وماذا أصنع في تلك القرية ، وأي حياة تبا لي فيها ! كلها شظف وخشونة ، وكلها جهل وغفلة ، وكلها رجوع إلى ذلك الطور الأبله الذي جعلت أخرج منه قليلاً قليلاً حتى امتزت من أمي وأختي وأخذت أشعر بأنني أحسن منهما فهماً للحياة ، وأصدق منهما حكماً على الأشياء ، وأشد منهما صبراً على الخطوب ، وأمهر منهما في التخلص من الشدائد والكوارث . ألسأ أدنى منهما إلى الطقولة ، وأجلد منهما أن أكون غرة غافلة ؟ ومع ذلك فإني أنظر إليهما كما تنظر الأم إلى صيبتين ضعيفتين تحتاجان إلى الحماية والحب وإلى العطف والعون ! كذلك كنت متناقضة أشد التناقض ، مختلفة أشد الاختلاف ،

أزبن لأختي ما أبفضه أشد البفض ، وأمي نفسي بما ليس إليه من سبيل . وكثيراً ما خطر لي خاطر قلم أقف عنده لأنه كان يظهر لي سخيفاً متجلبلاً ، كثيراً ما خطر لي أن أنفل من حولي إذا تقدم الليل ، وأن أنسل من الدار وأن أهرم على وجهي نحو الشرق منسابة بين المزارع والحقول وأقرى كما تساب الحياة الدقيقة ، حتى أبلغ المدينة مع الصبح أو مع الضحى ، وإذا أنا حيث أحب أن أكون .

لم أقف عند هذا الخاطر الذي كان يمر بنفسي من حين إلى حين مرّاً سريعاً فينفذ منها كما ينفذ السهم من الهدف ، لأن الاستجابة له لم تكن ميسورة . وكيف الانسلاخ من الدار والأحراس عليها قيام ! وكيف الانسياب في الريف ؟! وماذا تصنع فتاة وحيدة في ضوء النهار فضلاً عن ظلمة الليل ! وكيف لي بترك هاتين البائستين تحملان وحدهما ثقل الأحداث والخطوب ؟ أقيمى أقيمي يا آمنة ! وانسي نفسك ولذتك وراحتك ، وانظري إلى هذه الفتاة الجالسة أمامك ، إن ذهبوا ليمزق القلب ، وإن شحوب وجهها ليذيب النفس ، وإن هذه الدموع التي أخذت تنحدر من عينيها في سكون وضمت لحليقة أن تصرفك عن كل تفكير إلا فيها ، وعن كل عناية إلا بها . الحى الحى يا آمنة في تزيين الرخيل ، وفي التحدث بما سنجد في القرية من أمن ، وبما مستقبل فيها من هدوء واستمتاع بالحياة الراضية ، لا نخدم أحداً وقد يخدمنا الناس .

ولكن أختي لا تسمع لي أو هي تسمع ولا تفهم عني . هي مثل لا تحب الرخيل ولا تحن إلى الغرب ، وإنما تحن إلى هذا الشرق الذي تركت قلبها فيه : هنالك في ذلك البيت الجميل الذي تحيط به هذه الحديقة الواسعة ويقوم عليه ذلك العامل من أهل الريف ، ويعيش فيه ذلك الشاب المترف الذي يسمونه بالشمهندس .



في هذا البيت تركت أختي قلبها . وهي من أجل ذلك ذاهلة ذهولاً متصلاً ، وهي من أجل ذلك عاجزة عن أن تسمع لنا أو تفهم عنا أو ترد علينا جواب ما نلقى عليها من سؤال . كنت أحسبها محزنة لما تورطت فيه من خطيئة ، وما أشك في أنها أحست هذا الحزن ، وما أشك في أن الندم قد عذبها تعذيباً ، لكنني بعد أن أنفقت معها ليلة كاملة وتبيت من أمرها ما تبيت استقبلت الصبح ونفسي تلوب أمني وحسرة على هذه الفتاة التي تنظر وراءها فترى حياً مضيقاً ، وتنظر أمامها فترى خوفاً مروعاً ، وتود لو استطاعت أن تعود أدراجها إلى حيث الحب وما يمكن أن يستيع من نعم أو يؤس ومن سعادة أو شقاء . ولكنها تدفع إلى أمام . تدفع إلى حيث الخوف والروع ، وإلى حيث اليأس والفتنوط ، تدفع فتدفع ، لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تظهر شيئاً ينم عن مقاومة أو ممانعة . يا لها من قوة هائلة تسيطر على النفوس فتحوّلها من الشخصية والإرادة محوياً ، هذه القوة التي يسويها الحياء ورعاية العرف وما له من حرمان ! أنا أكذب على أختي فأزينا لها ما أكره ، وهي لا تكذب على أحد ولا تحفل بما تسمع ولا تكذب على نفسها ، وإنما أسلمت نفسها للقضاء واستيقنت أن خير ما في حياتها قد انقضى منذ أمرت أمنا بترك المدينة . فلم نخالف من أمرها وإنما استجبنا طاعتين . ولكن مِمَّ كانت تخاف ؟ وما هذا الروع الذي كانت آياته تبدو على وجهها بين حين وحين . والذي كان يبعث في جسمها من وقت إلى وقت رعدة قوية توشك أن تدفعها إلى النوب ؟ إن في هذا الغرب الذي ندفع إليه خوداً وخولاً وبأساً وقنوطاً ، وكل هذا يسوء ، وكل هذا يملأ القلب جزناً وأسى ! ولكنه لا يروع ، ولا يبعث في النفوس هذا الجزع ، ولا يثير في الأجسام هذه

الردة العنيفة الخفيفة . كلا ! لم تكن مخطئة ولا غالية حين كان الروع يملأ نفسها ، فقد كانت تعلم ما لا أعلم ، وكانت تقدر ما لا أقدر ، وكانت تمر أمامها صور حزينة شاحبة ، ممتعة مذعورة باعثة للذعر ، صور فتيات ثلاث لم أسمع حين قبل هذه الليلة ، ولكنهن كن حديث المدينة منذ عام وبعض عام ، خرجن من المدينة كما خرجنا نحن ، أو أخرجن منها كما أخرجنا نحن ، ثم لم يعدن إليها ولم تعد إليها أسرهن ، وإنما عادت إليها أحاديثهن ، كلها خوف وروع ، وكلها يأس وقنوط ، وكلها جزع وفرع ، وكلها بلونها الدم وقد يساقط منها قطرات . ما أنت وهذه الخواطر الدامية أيها الفتاة النحسة ؟ ! إنما ترحلين بين أمك وأختك وخالك إلى قريبك التي ولدت فيها لتعيشي بين قوم أحبك وأحببهم . وما زالوا يحبونك ولقد كنت تحبينهم منذ حين ، أذكركن ! لقد كنت أكثرنا حديثاً عنهم وحيناً إليهم في المدينة كلها التقينا . ما بالك تخافين منهم وتشفقين من لقاءهم وإنك لواحدة عندهم من الحماة والأمن ما لا سبيل إليه في حياة الغربة والعمل في هذه البيوت التي لا يعطفها علينا حب ولا ود ؟ ! ولكنها لا تسمع لي أو لا تفهم عني ، وإنما هي مشغولة بما تركت من حب وبما تستقبل من روع ، تمر أمامها صور ذلك الشاب الجميل المترف الذي أحبته ، وتمر أمامها صور هؤلاء الفتيات خائفات خيفة مروعة مثيرة للروع . أما هذه التي تسمى أمينة فقد احتر رأسها احتزازاً ، وأما هذه التي تسمى مارنا فقد شق صدرها شقاً . وأما هذه التي تسمى ملزمة فقد يقال إنها دفنت حية ولقيت حتفها محتقة في التراب . ما الذي يتخيلني من ألوان الموت هذه ؟ ! وأنا أرد عنها هذه الخواطر جاهدة ، أتلفح حباً حتى أقبلها وأداعها ، ثم أشد



في التلطف بها حتى استعطفها بما أسفح من دموع ، ثم أعنف وأغلو في العنف وأذلها بأني سأقص خوفها كله على أمنا وخالتنا ، وسأستوثق لها منهما أو سأمتنع عليهما فلا أتبعهما ولا أدعها تتبعهما ، وسأستجير نفسي وها منهما بهذا الرجل الكريم الذي نحن ضيف عنده . ولكنها إذا سمعت مني ذلك ثابت إلى نفسها وردتني إلى الأناة والمهل ، وأظهرت التجدد والصبر ، وتكلفت ثقة لا تلبث أن تضطرب واظمتاناً لا يلبث أن يزول .

بالك من ليل طويل بغيض ، لم تعرف فيه راحة ولا أمناً ولا هدوءاً ، وإنما كنا فيه نهب التدم المضي على ما فات ، والخوف المهلك لما هو آت ، والضيق الشديد بما نحن فيه ، والليل يطول ويطول ، كأنه يحمل أثقالاً لا قبل له بها ولا قدرة له على المسير معها ، فهو يزحف زحفاً بطيئاً أشد البطء ، وانهم يمشون نفوسنا تغشية ، وهذه الخواطر المنكرة تلور في رموسنا دوراناً متصلاً يكاد يفنيها . ولكن ما هذا الصوت الذي يثق هذا السكون الذي نحن فيه شقاً ويردنا إلى أنفسنا فزعيتين جزعيتين كأنه أخرجنا من نوم عميق ؟ إنه صياح الديك يودع الليل ويؤذن بمقدم الصبح . بماذا تصيح أيها الديك ؟ وبماذا تريد أن تنبئنا أو تنبأ لنا ؟ قالت أختي : أتذكرين صاحبة الودع ؟ إنها رأيتني بين رجلين أحدهما آذاني وصيحتي والآخر أجنبي وسيؤذيني ، ألم تفهمي عنها شيئاً ؟ قلت : وبماذا تريدن أن أفهم عن هذه العجوز الحقاء ومن هذا السحف الذي تردده في كل مكان وتقدمه إلى الناس جميعاً ؟ كل رجل عندها بين امرأتين أو بين نساء ، وكل امرأة عندها بين رجلين أو بين رجال . قالت

أختي : فإني أرى هذين الرجلين وأرى العين وأعرفهما كما أعرفك ، وستريهما وستعرفيهما ، وستبغضين أحدهما أشد البغض وستحبين الآخر حباً كثيراً ! وهذا الطواء يضطرب ويضطرب معه صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة ، والناس يستيقظون ويخرجون من منازلهم أفراداً بين ذاهب إلى المسجد وذاهب إلى الحقل ، ونحن نستقبل هذا الصبح الشاحب بنفوس شاحبة وقلوب واجفة ووجوه حائلة . لو استطعنا لأحجمنا ، ولكننا ندعى إلى الإقدام ولا نستطيع امتناعاً على هذا الدعاء .

هذان الحملان قد هينا للرحيل . وهذا خالتنا قد قام عندهما كأنه الشيطان ، وهذه أمنا تدعونا إلى الخروج في رفق . وها نحن أولاء نودع من عرفنا من أهل الدار . ثم تمضي ساعة وساعة وإذا ضوء الضحى يغمرنا في هذا السهل الرقيق الجميل الذي تمتد فيه عن يمين وشمال هذه الحقول النضرة ترتاح إليها النفوس والأبصار . ولكن هناك نفوساً لا ترتاح وإنما هي مضطربة دائماً ، وأبصاراً لا تستقر وإنما هي زائفة دائماً... إلى أين يمضي بنا هذان الحملان !

إنما يمضيان بنا إلى حيث الأمن والدعة ، وإلى حيث العز والمنعة ، وإلى حيث تقضي حياتنا كما تعود أمثالنا من فتيات القرية أن يقضين حياتهن هادئات فاعمات ، حتى إذا تقلعت بهن السن وأدركنهن ميعه الشباب ونضرتهم سعى إليهن الأزواج من شباب القرية أو من شباب القرى



المجاورة ، فأصبحت كل واحدة منهن سيدة في البيت أو سيدة في الحياض ،  
وامتثلت حياة فيها الجهد والعمل والكد ، وفيها الأبناء والبنات وما يستبعون  
من بهجة وقرّة عين ، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق . انظري يا ابنتي  
الكبيرة إلى كل هذا النور الذي يصبه الضحى علينا صباً والذي يغمرنا ،  
والذي نخوض بحلّة البحر . انظري إلى هذا النور الذي يغمرنا  
ويغمر السهل من حولنا ، وانظري إلى هذه الحقول تسيطر عن يمين  
وشمال لا تكاد تنهى ، وانظري إلى هؤلاء الرجال والنساء وإلى هؤلاء الفتيان  
والفتيات وقد ملأهم النشاط ، وبعث فيهم الجهد حياة لا حد لها ، فهم  
يذهبون ويحيثون وهم يعملون لا يعرفون كلالاً ولا سأمًا ، وأصواتهم ترتفع  
لا بالشكوى ولا بالأنين وإنما ترتفع بهذا الغناء الساذج الحلو الذي يبعث  
في هذا الجو نفحات ساذجة حلوة ، والذي يصور الأمل في غير إسراف ،  
والرضا في غير استكانة ، والاطمئنان في غير حزن ، وحب العمل على  
كل حال ، والثقة بالله على كل حال أيضاً .

انظري يا ابنتي واسمعي ، ثم سلى نفسك : أتجددين فيما ترين أو فيما  
تسمعين ما يثير خوفاً أو يبعث روعاً أو يدفع إلى بأس ؟ كل شيء آمن  
وكل شيء يدعو إلى الأمن ، كل شيء هادئ وكل شيء يدعو إلى  
الهدوء . إن ظلمة الليل لمنكرة وإنما لتحب الخوف وتثيره ، وإنما لتبعث  
الأشباح من مكانها ، وإنما لتغري القلب بالنفوس وتسلط الهم على  
القلوب . . . لقد كنت يا ابنتي تثيرين في نفسي مثل ما كان يثور في  
نفسك من الخوف حين كنت تتحدثين إلى وظلمة الليل تغمرنا من كل  
مكان . فأما الآن وقد انجلت هذه الظلمة وأصبحت لا أمد عيني إلا

رأيت ، ولا أمد أذني إلا سمعت ، فإنني لأضحك منك ومن تلك المراجيس  
التي كانت تروعك ، ومن تلك الأشباح الحمراء التي كانت تراءى لك  
وتمثل أمامك . وإنني لأضحك من نفسي ومن انقيادها لك  
بعض الشيء وتأثرها بك إلى حد ما . انظري واجتهدي في أن تستحضري  
الأشباح الحمراء ، إنها لا تستطيع أن تظهر ولا تجرؤ على أن تراءى فضلاً  
عن أن تمثل أمامك أو أن تسامرك . إن الأشباح لا تحب النور ولا تستطيع  
أن تظهر في وضوح النهار ، إنما الأشباح والخوف والفرع واليأس بنات  
الليل ، تطمئن إليه ويطمئن إليها ، تستظل به ويسقط عليها ظله المظلم  
الساكن الخفيف ، فإذا ابتسم الصبح وأشرق الضحى واستيقظت الحياة  
ذابت كل هذه المروعات ، وانجابت مع الظلام ، فلم يبق لها أثر في  
نفس ولا سلطان على قلب . انظري إلى هذا الضحى المشرق ، وأفيض  
بعض إشراقه على نفسك . انظري إلى هذه الحياة التي يملؤها النشاط  
فأفيض منها على قلبك . أأست تحسّن الحاجة إلى أن ترفعي صوتك  
بالغناء ، كما يتغنى هؤلاء الشباب عن يمين وشمال ؟ ثم انظري إلى أمنا  
ونحائنا ، إن جملهما ليسعى بهما مرحاً شديداً النشاط ، وإنهما ليتحدثان  
في هدوء وأمن واستبشار وشيء من الحنان كأنما يذكران أيام صباهما  
وشبابهما ، وكأنما يودان لو رجعت بهما الأيام إلى مثل هذه السن التي نحن  
فيها . أترين عليهما مظهراً من مظاهر الرية أو آية من آيات المكر ، أو دليلاً  
من دلائل الكيد ؟ كلا ، إنهما ليمتريجان بما حولهما فإذا هما حياة وأمن  
وأمل ، فلنكن مثلهما حياة وأمنًا وأملًا .

ويسلك حديثي هذا سبيله إلى قلب أختي كما يسلك النور والحياة  
سبيلهما إلى نفسي ، وإذا هي تطمئن بعض الشيء لا تبسم للحياة ولكنها



لا تصرف في العيوس ، إنما هي كآبة مذلعة تغشي نفسها ولكنها كآبة هادئة لا تثير روعاً ولا جزعاً ولا بأساً . والطريق تمضي بنا مستقيمة جميلة يجيبها إلى النفوس هذا النور القوي الذي يزداد قوة وصراحة وإلحاحاً كلما تقدم النهار ، وهذه الحقول الخصبة يملؤها هذا النشاط الحبيب وهذا الغناء الخلو يرتفع في الجو ، ويمتزج بما يملؤه من الضياء والهواء ، ونحن لا نجزز قرية إلا دفعنا إلى قرية أخرى ، حتى إذا تقدم النهار وكدنا ببلغ مصر ، وكنا قد انتهينا إلى بعض القرى قال خالنا : لقد آن لنا أن نسريح ساعات ، ولست أرى بأساً بأن نستأنف السفر إذا أقبل الليل ، فقد أشرفنا على بلادنا وما أرى أن الليل سيتصف حتى نكون قد بلغنا البحر عند بني فلان فإذا أسفر الصبح عبرنا إلى أرضنا ولا يرتفع الضحى حتى نكون قد انتهينا إلى بني وركان .

ثم يعرج بنا على القرية وينبئ بنا عند دار العمدة ونترنل من هذه الدار أحسن مترنل . وإني لشديدة الرغبة في أن أنفق الليل حيث أنا ، وإن أختي لتشاركني في هذه الرغبة ، ولكن خالنا قد أزعج المسير مع الليل ولم تراجع أمنا ولم تمنع عليه ، ولم يستطع مضيقنا أن يثبته عما اعتزم ؟ وسنا كنا نحن نأخذ حظنا من الراحة بعد أن أصبنا بما قدم إلينا من طعام كان خالنا قد خرج من القرية يريد فيما زعم أن يلم ببعض من كان يعرف في قرية محاورة ، فيغيب عنا ساعة وساعة وساعة ، ويقبل الليل ويسط ظلمته بطلاً ، ونكاد نستشيس من استئناف السفر ونكاد نعلمن إلى البقاء حتى يسفر الصبح .

ولكن هذا خالنا قد أقبل ، وهذا صوته الغليظ القاطع يرتفع بالنداء

إلى الرحيل . وما نحن أولاء نستجيب لندائه ، وهؤلاء أهل الدار ينكرون عليه هذا السفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس ، ولكن خالنا إذا عزم أمضى . وما هي إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان الحملان قد دفعا بنا دفعاً إلى الطريق العامة وقد أسدل الليل أستاره من حولنا إسداً ، وقد نامت الحياة وخلت الحقول وسكن كل شيء وانقطعت الأصوات ، إلا هذه التي تأتينا من بعيد بين حين وحين فتنبها ، فإذا هي أصوات الكلاب تنبح في القرى البعيدة ، وإلا هذه الأصوات اليسيرة الخفيفة المختلفة المتصلة التي تحيط بنا وتمتزج بسكون الليل امتزاجاً فتحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة المروعة معاً ، وهي أصوات الحشرات والضفادع المنبهة في الحقول وعلى شواطئ الأقبية .

وربما وصل إلينا من حين إلى حين صوت بعيد يأتينا من يمين أو من شمال فتذكره ونرتاع له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء اليوم ، وربما ارتفع صوت خالنا ببعض غناء البادر فرجع ترجيحاً جميلاً خفيفاً معاً ، ولكنه لا يتصل إلا قليلاً ثم ينقطع . ويمضي خالنا في حديثه مع أمنا ، أو يفرق خالنا وتفرق أمنا في الصمت العميق ، وأنا وأختي نسمع لهذا كله ونحدث في شيء من الحمس الخائف الوجل كأنما نقر من شيء نخافه أو تقدم على شيء نخشاه . ومن يلدرى ، لعلنا كنا ننتظر ظهور الأشباح الحمراء ، ونشفق من أن تراءى لنا وتمثل أمامنا وتكرهنا على أن نتحدث إنيا أو نتحدث عنها ، والحملان يسعيان بنا معاً فيه إسماع ولكنه إسماع لا يكاد يحس ، وكأنهما مثلنا يفران من بعض ما يكرهان فهما يجدان في السعي ! وسكون الليل يثقل شيئاً فشيئاً ، وظلمة الليل تزداد كثافة



من نحن إلى حين ، ونفوسنا تريد أن نهم في هذا السكون وتختلط بهذه الظلمة ونود لو احتواها النوم ، ولكن أنى لها أن نهم في سكون الليل وهي مضطربة وأنى لها أن تختلط بظلمة الليل وفي جنباتها هذه الأنوار الضيئة الشاحبة أنوار التفكير في غد والتذكر لأمس ، والرؤية فيما نحن فيه ؟ ! وأنى لها أن تنام وهذه بنات الليل قد أخذت تظهر شيئاً فشيئاً وتدنو منا قليلاً قليلاً ، ونشعر فينا هذا الإشفاق البغيض الذي لا يستطيع أن يكون أمناً ولا يبلغ أن يكون خوفاً صريحاً ، وإنما هو قلق خفي ما كره يفسد من حوله كل شيء ؟ ! ونحن نريد أن نقاوم بنات الليل هذه فنعض أبصارنا حتى لا نراها ونسد آذاننا حتى لا نسمع قربها منا ! والجمالان يسميان في جد ونشاط لا يكاد يأخذ منهما الفتور . ثم يرتفع صوت خالنا غليظاً مخيفاً ، كله شر وكله نكر وكله نذير : هنا يجب أن ننزل . وما هي إلا أن ينام الجمالان ولم تستطع واحدة منا أن تقول حرفاً أو أن تنطق بكلمة أو أن تفكر في شيء ، وإنما هو ذهول غريب كثيف قد أطبق علينا وملأ نفوسنا كما أطبق علينا وملأت نفوسنا ظلمة الليل . وهذا خالنا قائم كالشيطان ، وهو يأمرنا في غلظة وعنف أن ننزل فلن يمضي الجمالان أمامها قيد أصبع .

وها نحن أولاء ننزل مضطربات ، ونسعى متعثرات ، وهذه أمنا تريد أن تسأل فيم إناخة الجمالين ، وفيم النزول في غير منزل ، وها أنا هذه أريد أن أقول شيئاً ولكني لا أكاد أدير لسانى في في ، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمنا تقول ، إنما هي صيحة منكورة مروعة تنبعث في الجو ، وجسم ثقيل متهالك يسقط على الأرض ، وإذا أخفى قد صرعت وإذا

خالنا هو الذي صرعا لأنه أعمد خنجره في صدرها . ونحن عاكفتان على هذا الجسم الصريع يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم في قوة كما يتفجر الماء من ينبوع . ونحن عاكفتان في ذهول وغفلة وبله ، لم نفهم شيئاً ولم نقل شيئاً ولم نتختر شيئاً ، وإنما أحيانا على غرة أخذنا واختلطت هنادى من بيتنا اختطافاً ، وجسمها يضطرب ويتخبط ودمها يتفجر ولسانها يضطرب ببعض الحديث في فيها ، ثم يبدأ الجسم المضطرب ، ويمكن اللسان المتحرك . ويخف تفجر الدم ، ويمتلئ الجو حولنا بهذا السكون الأليم سكون الموت . ونحن فيما نحن فيه من ذهول وغفلة وبله ، وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذ الذهول كما أخذنا . . .

وهذا نداءك أيها الطائر العزيز يبلغنى من بعيد ، وهذا صوتك يدنو إلى قليلاً قليلاً ، وهذا غناؤك ينتشر في الجو كأنه النور المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من الحول دون أن نراه . وها أنت ذا تبعث صيحاتك بتلو بعضها بعضاً ، كأنما هي سهام من نور قد تلاسقت مسرعة في هذه الظلمة فطردت عن نفسى ذهولها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا البله ، وجلت لها الجريمة منكورة بشمة ، والمجرم آثماً بغيضاً ، والضحية صريحة مضرجة بالدماء . . .

إن صوتك لم يوقظنى وحدى وإنما أيقظ أمنا فيها هي هذه تفيق وها هي هذه تسأل أخاها : أو فعلها يا ناصر ؟ ! وها هي هذه تفرق في بكائها السخيف بكاء الأنثى المستسلمة التي لا تملك حولاً ولا طولاً إلا صفح الدموع . ويلك أيها البائسة ! إنك لتستطيعين أن تسفحين دمعك إلى آخر الدهر فلن تغسلى قطرة من هذا الدم الذكى . ويلك أيها الأم



الآثمة ! إنك لن تستطيعي أن تردى نفسك إلى البراءة والأمن .

نعم ! إن صوتك أيها الطائر العزيز قد أيقظني وأيقظ هذه الأم المجرمة التي سفكت دم ابنها بيد أخيها ، وأيقظ هذا المجرم فنبهه إلى أن جريمته يجب أن تخفى وإلى أن آثار لثمة يجب أن تترك . وأنت لم يوقظ هنادى وما كان ينبغي له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقو ومهما يلح فلن يستطيع أن ينفذ من أستار الموت . إنك لترسل صيحاتك متصلة متلاحقة وإلى الأنشطة مثلك للصباح ، وإن صوتينا ليملآن الفضاء العريض من حولنا ، ولكنهما لا يصرفان هذه المرأة عن يكائها السخيف ، ولكنهما لا يصرفان هذا الرجل عما هو مقبل عليه من إخفاء هذا الجسم في هذه الحفرة التي لم يفارقنا آخر النهار إلا لبيثها .

لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله ، واستنفدت هنادى حظها من الحياة ، وماتت لأن شاباً آثماً أغواها ولأنها لم تحصن أن تدفع عن نفسها غوايتها .

إن صوتك لينبعث في الفضاء مستغيثاً وليس من يقيث ، وإن صوتي لينبعث في الفضاء داعياً وليس من يجيب ، وإن هذا الرجل المجرم ليفرغ من إخفاء جريمته ويحو آثارها ثم يلتفت إلى هذه المرأة وإلى ويقول في صوت متهدج فيه الرعب وفيه الخوف وفيه التذير : هلم فقد آن أن نرتحل . فإذا أبطأنا عليه ردد هذه الكلمات في صوت أشد ثرويعاً وأكثر امتلاءً بالتذير . ثم يمثل أمامنا ويقول :

تعلمان والله أن هنادى ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بهذا

الوباء الذي ألم بها منذ أسابيع !

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العزيز قليلاً قليلاً ، وانقطع عني صوت خالي ، ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسلت من الأشياء كلها ، وإني لأراني أمرض في بيت خشن حقير .

## ١١

متى بلغت هذا البيت ؟ وكيف بلغت ؟ وأي طريق سلكت إليه ؟ وكم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه ؟ وكم من يوم أو من أسبوع احتملت أثقال هذا المرض الذي أخذت غمراته تنجلي عني لحظات في كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتراكم ويركب بعضها بعضاً وتأخذني من كل وجه فأجهل نفسي وأجهل من حولي : كل شيء وكل إنسان ، ولا أحس ولا أرى حين أغرق فيها وحين أخرج منها إلا هذه الصورة المنكرة البشعة التي لا أذكرها الآن ولم أذكرها قط إلا جرت في جسمي رعدة عنيفة مؤلمة وأخذت نفسي اضطراب لا حد له ؟

أسئلة ألقيتها على نفسي ألف مرة ومرة ، وسألقتها على نفسي ألف مرة ومرة ، فلم أظفر ولن أظفر لها بجواب . وإنما أذكر صوتك أيها الطائر العزيز وهو ينحف في أذني ، ويضي قليلاً قليلاً كأنه صوت المودع يبلغ المسافر والقطار يبعد بعده شيئاً فشيئاً . إنما أذكر ذلك الصوت البشع المجرم صوت خالنا الآثم وهو يتهدج ويعد عني شيئاً فشيئاً في ثقل وبغض واشمئزاز . إنما أرى قطعة من الليل تسعى إلى سعيها هادئاً أول الأمر ولكنها



تسرع شيئاً فشيئاً ، وهذه الظلمات تتكاثف من حولي كأنها الأمواج العظام ، وهذه الأصوات تنقطع وتبعد ، وهأنا هذه يغمري الموج وأدخل في الليل فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً ولا أشعر بشيء ، يا له من نوم عميق طويل ! إن الأحلام قد ألحّت عليه ، فهي تروّعني فيه ترويعاً متصلاً ليس إلى انقطاعه من سبيل .

أكنت نائمة ؟ أكنت مستيقظة ؟ أكنت مريضة ؟ أكنت صحيحة ؟ أكنت عاقلة ؟ أكنت ذاهلة ؟ لا أدري ، إنما أعلم أنني كنت شاعرة شعوراً غامضاً ولكنه قوي ملح كأنني قد أقمت إلى ينبوع يتفجر أمامي من الأرض في مكان رحب ، بعيد الآفاق لا يقوم فيه شيء ، ولا تقع العين فيه إلا على هذا ينبوع وعلى ظل مقيم عنده لا يريم ، وعلى ظلال أخرى تجيء كأنما أقبلت تزور هذا الظل ، فهي تلم به حيناً وكأنما تتاجيه وكأنه يسمع منها وكأنه يرد عليها ، وكأنني أسمع نجوى هذه الظلال ولكنني لا أحقق ما أسمع ، وكأنني أفهم نجوى هذه الظلال ولكنني لا أثبت ما أفهم . . . وأنا جامدة هاملة لا أحس ولا أرى إلا هذا ينبوع الذي يتفجر في غير انقطاع ، وهذا الظل الذي لا يتحول عنه وهذه الظلال التي تغشاه بين حين وحين . يا له من ينبوع كريمة أود لو أحول عيني عنه ، ولكن حرته تجتذب عيني إليه اجتذاباً ! إنه لينبوع غزير ، ولكنه لا يتفجر منه الماء ، وإنما يتفجر منه الدماء . يا له من ظل حزين كئيب شاحب مشرف في الشحوب أحاول أن أغمض عيني وأن أغلق نفسي فلا أحس له محضراً ، ولكن شحوبه يستهوي نفسي ولكن حزنه يمزق قلبي ولكن انحناءه على هذا ينبوع يملؤني لوعة وروعة

وابتناساً ! يا لها من ظلال تذهب وتجيء هادئة لا تكاد تشعر ولكن في حركاتها ما يملأ النفس جزعاً وهلعاً ! ما لي لا أثبت عيني في هذا الظل المقيم ، وما لي لا أثبت عيني في هذه الظلال المضطربة التي تذهب وتجيء ؟ أناائمة أنا أم مستيقظة ؟ أعاقلة أنا أم ذاهلة ؟ أليست أثبت في هذا الظل المقيم ملامح أختي فما لها إذن لا تكلمني . . . وما لها إذن لا تدعوني . . . وما لها إذن لا تتاجيني ؟ لقد عرفتها محبة لي واثقة بي مطمئنة إلى ، فما لها لا تظهر لي شيئاً من هذا الحب ، ولا تبدي لي شيئاً من هذه الثقة ، ولا تبين لي عن شيء من هذا الاطمئنان ؟ إنما هي مكبة على هذا ينبوع تنظر فيه كما تنظر الفتاة الجميلة في المرأة . هم تبحث في هذا ينبوع ؟ أتراها تلمس صورتها في هذا الدم المتدفق ؟ وما لها لا تكلمني ، أليست ترائي ؟ ما لها لا تجيبني ، أليست تسمعي ؟ ما لها لا ترق لي ولا تعطف علي ؟ أليست تسمع هذا النداء الذي ينبعث من في باسماها في صيحات قوية عنيفة متلاحقة ؟ ! إني لأسمع هذه الصيحات ولكنني لا أرى من أختي أنها تسمعها ، وكأن هذه الصيحات تخيفها وتزعجها ! فهذا ظلها يستخفي وتستخفي معه الظلال الأخرى ، ويستخفي معها ينبوع الأحمر ، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إلى ويدنون مني ويستجيبون لي ، فلا أكاد أنظر إليهم حتى أتيبهم ، ثم أخافهم ، ثم أبغضهم ، ثم أتي محضرهم بالصمت والهدوء . . . إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحي فأقبلوا يرفقون بي ويسألوني عما أجده .

إنهم أهل الدار ، وما أشد بغضي لأهل الدار . إني لأرى بينهم أمي وإني لأكره أن أرى أمي . كلا ! لا كلف عن هذا الصياح لعل



أهل الدار أن ينصرفوا عني فيجنبوني محضهم الكره؛ إني لأخذ نفسي بالصمت وأكره نفسي على الهدوء، وما هي إلا لحظات صامتة هادئة حتى يسدل ستار ويرفع ستار. وهذا ينبوع الأحمر يتفجر من الأرض قوياً غزيراً، وهذا ظل أختي ما كنا لا يريم، وهذه الظلال تذهب من حوله وتجيء. إن لي بهذه الظلال لعهداً، لقد رأيتهما ولقد سمعت عنها حديثاً، لقد حدثني عنها أختي في تلك الليلة التي قضيناها مروعتين حين أقبل خالنا يدعونا إلى سفره الآثم.

نعم إن لي بهذه الظلال الحمراء ظلال مرثا وأمينة وملازمة تلك التي كانت تراءى لنا فتملاً قلب أختي فرقاً وهدماً وروعاً... إن لي بهذه الظلال لعهداً وإني لأعرفها وإني لأفهم الآن إلحاحها بالزيارة على هذا الظل المقيم. لقد أقبلت تحييه وتواسيه وتبته ما وجدت من ألم وحزن، وتسمع منه ما وجد من شقاء وبؤس. إن نجوى الظلال لغريبة... ليتني استطعت أن أفهمها، ليتني استطعت أن أستحيل ظلاً فأفهم حديث الظلال! ما بال أختي لا تناجيني، أتراها لا تحسن محضري، أم تراها لا تعرف كيف تتحدث إلي أو تفهم عني؟ أتغير لغة الناس إذا ماتوا؟ لقد حدثونا أن للموتى حديثاً يلقونه إلى الأحياء فيفهمه عنهم الأحياء...

إني لأعرف هذه الظلال. لقد كنت في ضلال إذن حين كنت أزم لأختي في بعض الطريق أن الأشباح بنات الليل، وأنها تكره ضوء النهار ولا تستطيع أن تظهر فيه، والظلال ملحة في المثل أمامي لا يصرفها عني مطلع النهار ولا يصرفها عني مقدم الليل. إن الظلال إذن لا تناب نوراً ولا تألف ظلمة، ولعلها لا تعرف نوراً ولا ظلمة وإنما نحن بغشينا

ضوء النهار فلا يرى الظلال التي تحيط بنا وتضطرب من حولنا وترى كل ما نأق وتسمع كل ما نقول. ولعلها ترثي لنا، ولعلها تسخر منا، ولعلها لا تفهم عنا شيئاً كما أننا لا نفهم عنها شيئاً. يا للهول إن تدفق ينبوع ليشتد، وإن الدم لينتشر من حوله انتشاراً، وإن الحمرة لتصبغ كل شيء من حولي، وإن هذه الظلال لتدنو مني كأنها قد عرفتني وكأنها تريد أن تقبلني! يا للهول، إن الروح ليملاً قلبي، وإن الصياح ليتفجر من فمي فيملأ الجو من حولي كما يتفجر الدم من ينبوع فيصبغ الأرض بحمرته، وإن أهل الدار ليقبلون على، منهم الجزع، ومنهم المطمئن، وهم يرفقون بي ويعطفون علي...

وهذه أمي، يا للهول! ما أسمع هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة وما أشد بغضي لهذا المحضر! إنها لتدنو مني وإن الدم ليجمد في عروقي لمقدمها. إنها لتضع على رأسي خرقة مبللة وإني لأجد لبرد الماء شيئاً من الراحة، ولكن لينصرف عني هذا الوجه فإنني أكره أن أراه، لترد عني هذه المرأة فإنني لأخشى أن تقتلني... وكيف أخلص منها وكيف آمن محضرها إلا إذا آويت إلى الصمت ولجأت إلى الهدوء؟ إنه لعذاب أليم هذه الحياة بين ينبوع الأحمر والظلال المطيفة به إن آثرت الهدوء، وبين أهل الدار وهذه المرأة البغيضة إن آثرت الصياح. أليس لي سبيل إلى الراحة من هذا العناء؟ ما أكثر ما طلبت وألححت في طلبها، وما أكثر ما فرت مني وامتنعت علي، وما أكثر ما خيل إلي أني أجري في إثر شيء أعنائه أشد التقي وأحرص عليه أعظم الحرص وأجد في طلبه كل الجهد، حتى إذا بلغته أو كدت أبلغه كانت منه وثبة فإذا المسافة بيني



وبينه واسعة وإذا الأمد بينه وبينى بعيد ، وإذا أنا معذبة أشد العذاب  
بالاضطراب الملح المضنى بين وجوه أهل الدار التي أكرهها ، وهذه الظلال  
التي يؤذيني منظرها ويثير في نفسي ألماً لا آخر له . . .

ولكنني أستقبل النهار ذات يوم هادئة النفس مستريحة الجسم ،  
قد ألح الضعف على فؤاد أكاد أتحرك . على أني أجد في هذا الضعف  
نفسه دعة وأمناً فاستعذبه وأستلذه وأستسلم له استسلاماً ، وأجد في نفسي  
دهشاً لذيلاً حلواً لأنني أفتقد شيئاً كنت أخاف أن أجده ، أفتقده افتقاد  
السعيد بالنجاة من شر يخشاه . فقد يخيل إلى أن قد بعد العهد بيني  
وبين الظلال والينبوع ووجوه أهل الدار ، وأنني قد قضيت وقتاً غير  
قصير لم أر حرة الينبوع ولم أشهد اضطراب الظلال ولم يرتفع صوتي  
بالصياح ولم يسرع إلى أهل الدار . ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى  
أجتهد ما استطعت في أن أذود هذه الخواطر عن نفسي مخافة أن يطول  
تفكيري فيها فيكون ذلك استحضاراً لما أتمثله من الهول ، ودعاءً لما أجد  
من السعادة في الإفلات منه ، ورفعاً للستار عن الينبوع الذي منه ينفجر الدم  
والذي تطيف به الظلال . فأنا أذود هذه الخواطر عن نفسي ، وأستسلم  
لهذا الضعف الذي أجده ، وأود لو بقيت كما أنا هاملة خامدة لا أقدر  
على شيء حتى على التفكير ، ولكن هذه هي أمي تدنوني وعلى وجهها الكتيب  
شيء من آيات الرضا ، وهي تقول لي في هذا الصوت الذي يخيل إلى  
أنني لم أسمع منذ زمن بعيد : لقد نمت الليلة كلها يا آمنة ، فأنت بارئة ،  
وما أرى إلا أنك مسترعين نحو الشفاء . لينها لم تقبل علي ، ولينها لم  
تدن مني ، ولينها لم تتحدث إلي ! فقد اقشعر لقربها بدائي كله ،  
واضطربت نفسي كلها ، وأخذت غشاوة غريبة تلقى على عيني ، وأخذت

الأشياء تضطرب من حول اضطراباً وآذاني هذا كله أشد الإيذاء حتى  
كدت أصبح لولا أني حبست صيحتي في حلقى ولكن لم أستطع أن  
امسك يدي وأن أمنعها عن أن ترتفعا إلى عيني لتردا عنهما منظر هذه  
الأشياء الراقصة ، وظنت الأم البائسة أني أنقيا فولت باكية ، ووجدت  
في انصرافها عني سروراً وراحة ورضاً .

ولا بد مما ليس منه بد ، فلم يكن سبيل إلى أن تمتنع أمي عن عيادتي  
والعناية بي ، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءها وأخلص من محضرتها ،  
ولم يكن بد من أن تنظر إلي وأنظر إليها ومن أن تتحدث إلي وأسمع منها  
وأرد عليها رجع الحديث ؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير في نفسي من الموجدة  
والغيط ما كان يردني أحياناً إلى بعض ما كنت فيه ، ولم يكن ذلك دون  
أن يثير في نفس هذه المرأة البائسة آلاماً إلى آلام وشقاء إلى شقاء فترسل  
عبراتها حيناً وتهدأ حيناً آخر ، وربما أثار في نفسها غضباً تجتهد  
في حبه أن ينفجر . وأنا أدنو إلى البرء وأستزيد من القوة وأسترد النشاط  
قليلاً قليلاً ، وآتي بعض الحركات اليسيرة فأجلس وقد كنت لا أستطيع  
الانتقال ، ثم تنوب الحياة إلى في قوة كأنما كان بيني وبينى سد ، فلما  
أزبل أخذت تغمرني من كل وجه ، وإذا أنا أنهض وأسعى ، وإذا  
أنا أسترد حظاً من القوة غير قليل وأجد رغبة في كل شيء إلا في الحديث .  
وأني تدور حولي وتتلطف لي وتغلو في العناية بي ، وتود لو تجد إلى  
نفسي سبيلاً ، وتنفق جهوداً مشيرة للرثاء تريد بها أن تصل أسباب الحديث  
بينها وبينى ، ولكنها لا تصل مما تريد إلى شيء ، وقد ألقى بين نفسي  
ونفسي سور صفيق فهما لا تلتقيان . ومع ذلك فإن خاطراً من الخواطر



كان يتردد في نفسى ترددًا لا يكاد ينقطع وكنت أدافعه دفاعاً متصلاً  
 لأنى كنت أجد في اضطراب نفسى به ألماً فيه الخوف والرعب وفيه البغض  
 والحقد . فقد كنت أسأل نفسى وأريد أن أسأل أبى أو أن أسأل بعض  
 من حولى عن حالنا ذلك الشيطان الآثم المريد : أين هو وأين استقرت به  
 الدار ؟ فما أذكر أن صورته البغيضة تمثلت لى فيما كان يتمثل لى من  
 الصور أثناء العلة ، وما أذكر أنى سمعت له ذكراً أو عرفت من أمره  
 خبراً منذ أخذ البرء يسعى إلى ويدب في أعضائى ، وما أذكر أن أحداً من  
 أهل الدار قد أشار إليه أو ألم بالحديث عنه منذ أخذت أخالط أهل  
 الدار وأشرك معهم في بعض شؤون الحياة . وكنت مع ذلك أراد أن  
 أعرف من أمره بعض الشيء ، أو أكره أن أعرف من أمره بعض الشيء ،  
 أحي هو أم ميت ؟ أفلت بجريته أم أخذه السلطان ؟ أمقيم هو في القرية أم  
 ذهب في الأرض يلتمس مأمنه بعد الإثم وراء هضبة من هذه الهضاب ؟  
 ما أكثر ما ترددت في نفسى هذه الأسئلة وما أكثر ما جاش بها  
 صدرى وما أكثر ما هم لسانى أن ينطق بها ، ولكنى كنت أحبسها في  
 ضميرى حبساً خوفاً منها وبغضاً لهذا الرجل الأثم . على أنى لم أستطع  
 ذات صباح أن أملك من أمرى ما تعودت أن أملكه فسألت أبى وقد  
 خلوت إليها ، سألتها وأنا أكاد ألوى وجهى عنها : أين هو ؟ وما أسرع  
 ما فهمت عنى ، وما أسرع ما أجابتنى وهى تشير إلى بالصمت : لقد  
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . قالت ذلك وانهمرت دموعها غزيرة  
 سخينة ، ولكن بكاءها لم يدع بكائى وحزنها لم يثر حزنى فقد كان بين  
 نفسها وبينى سور صفيق . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . . .

فلم يأخذه السلطان إذن ولم يهرب ملتصقاً بمأمنه وراء هضبة من هذه  
 الهضاب ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن  
 أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الريف ويحملون إلى أهل  
 الريف ثمرات الواحات . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكانت  
 نفسه هادئة ، وكان ضميره مطمئناً ، وكان قد نسي لثمه نسياناً ، وكان  
 قد انجلى عنه هذا الذهول الذى غشيه بعد أن سوي الأرض على ضحيته .  
 ولم تمثل له هذه الصور المروعة التى تمثل لى ، ولم تنهكه هذه  
 الحمى التى أنهكتنى ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يبيع  
 ويشترى ، ويتحدث مع رفاقه إذا تحدثوا ، ويلهو مع رفاقه إذا هوا ،  
 كأنه لم يأت شيئاً ولم يقترف إثماً ولم يسفك دم ابنة أخته بيده . . .  
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب ، وسيعود من الواحات فيمن يعود ،  
 يحمل وجهه البغيض ونفسه المحزنة وضميره الآثم ، ويحمل مع هذا كله  
 تجارة قد ترتضيه وقد ترتضى أهل هذه الدار ، وسيلقونه مغتبطين بلاقائه ،  
 وسيلقاهم سعيداً بالعودة إليهم لا بحس ألماً ولا ندماً ، سيرتفع صياح  
 الفرح لمقدمه في هذه الدار ، سيرتفع صياح الفرح في القرية كلها  
 لمقدم العائدين معه من أهل القرية ، وسيقضى الناس هنا أياماً كلها  
 أعياد يملؤها السرور والخبور . أما أنت أيتها الأخت الثعنة البائسة فلن  
 يذكرك في هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التى لا تستطيع أن تذكرك إلا سراً بينها  
 وبين نفسها ، وإلا هذه الفتاة التى لا تكاد تفكر فيك حتى يترأى لها  
 ينبوع الأحمر والظلال المطيقة في ذلك الفضاء العريض فتشفق من الجحون . !  
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود . . .



حرام على أن أراه ، وحرام على أن أشهد ما سيثير مقدمه من القرح والابتهاج . إني لعاجزة عن لقائه ، وإني لخليفة إن لقيته أن أفصح من أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سرّاً . أليست هنادى قد ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بذلك الزباء ؟ !

وأشرق الشمس ذات يوم على أهل الدار وارتفع الضحى ، واقتقد أهل الدار آمنة فلم يجدوها ، ولو أنهم افتقدوها في القرية كلها لما وجدوها فقد كانت آمنة في بعض الطريق قد عبرت البحر مصوبةً نحو الشرق . . .

## ١٢

وإني لأراها في طريقها نحو الشرق فيمتلئ قلبي رحمة لها وإعجاباً بها وخوفاً عليها . وأى قلب لا يرحم فتاة غرة لم تكد تتجاوز سن الصبا وقد قذفت بها الأحداث في بلجة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال ، وهي وحيدة ليس لها عون ، قد صفرت يدها من كل شيء ، وفرغ قلبها إلا من هذا الحزن اللاذع الذي يفعمه إفعاماً ، وعجزت نفسها حتى عن الأمل ، فهي قد فرت من بيت أسرتها فراراً ، لا تريد شيئاً إلا أن تخلص من هذه البيئة التي لم تكن تستطيع فيها مقاماً ، وتفلت من هذا الشيطان المرید الذي كانت توشك أن تلقاه إن أقامت أياماً .

وأى قلب لا يعجب بهذه الفتاة الغرة التي لم تكد تتجاوز الصبا ، والتي فرت من أهلها فهي تسعى لا تلوى على شيء ، نحيلة هزيلة ، بائسة كثيبة لا تدرى أين ينهى بها المسير ، ولا تعرف كيف يتاح لها

القوت ، بل لا تفكر في شيء من هذا ، وإنما تمضي أمامها مسرعة في المضي يدفعها عزم لا يعرف الكلل ، وبغض للشر لا هوادة فيه ، وثقة بالعدل لا حد لها .

وأى قلب لا يخاف على فتاة غرة لم تتجاوز الصبا تسعى وحدها في الطريق العامة إلى غير غاية ، وقد صحبها الفقر والحاجة والضعف وحدانة السن وشيء من جهال يغري بها كل غوى ، وبطمع فيها كل مفسد ، وما أكثر الغواة والمفسدين في هذه الطريق العامة التي تستقيم وتلتوى بين قرى الريف ! لك الله أيتها الفتاة الناشئة ! إلى أين تذهبين ؟ ألم تفكرى في هذه

الكوارث والخطوب التي تضمهرها الحياة للضعفاء والبائسين ، وللضعيفات والبائسات خاصة ، وتكشف عنها شيئاً فشيئاً فإذا هي مصدر نصب للشر والضر ، وينبوع غزير للسيئات والآثام ؟ ألم تفكرى في هذه الأقاصيص التي كان يمتلئ بها صباك والتي كانت تسلي نهارك وتروع ليلك ، والتي كانت تمتلئ بأحاديث الأغوال وقد تفرقوا على الطريق يعترضون المار حين يمر بهم وقد انقطعت به السبل فإذا هم يضمرون له الهول كل الهول ، ويسرون له البغض كل البغض ، وإذا هم لا يكادون يتسمون ريحه وقد أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرماً إلى لحمه وعظمه ، وحتى تضطرم في أجوافهم غلّة لا يرونها إلا دمه ، وهو يبلغهم خائفاً وجلاً قد ملأ الخزع قلبه وفرّق الخلع نفسه ، فإن كان قد حفظ الوصية ووعى النصيحة واستعد للقاء الغول ابتدره بالسلام فقلّم أظفاره واضطره إلى السلم والمراعاة ، وإن لم يكن قد حفظ ولا وعى ولا هيا نفسه للقاء الخطوب مر بالغول فالتقمه التقاماً والهمه الهماماً ، وقطع الوسائل



بينه وبين من ترك وراءه ومن كان يعضى للقائهم أمامه . . . ؟  
 ماذا أعددت يا آمنة لهؤلاء الأغوال فإنهم منشون في الطريق ؟  
 ليسوا سبعة كما كانت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون ، بل  
 أكثر من سبعين ، بل مئة ، بل مئات قد انتشروا في الطريق ، منهم من  
 جلس ينتظر الفريسة ومنهم من مضى يبتغيها ، منهم من برز ضاحياً  
 ومنهم من استخفى في الحقول واختبأ في المزارع ، منهم من يظهر مظهر  
 الغول كريهاً مخيفاً لا يكاد تبلغه العين حتى يمتلى القلب منه فرقاً وحتى  
 تندفع الفريزة إلى اتفائه ومحاولة اجتنابه والحلاص منه ، ومنهم من يظهر  
 مظهر الرجل الوديع أو الشاب الرفيق تبلغه العين فيطمئن إليه القلب ،  
 وتأنس إليه النفس بعد وحشتها ، ثم لا يجد منه إلا الجحى إليه إلا غداً  
 ولا يظفر عنده الوائق به إلا بالشر والنكر والبوار . منهم من اتخذ زى  
 الرجل ، ومنهم من اتخذ زى المرأة ، وكلهم غول قد هيأته الأحداث  
 لأمثالك من الفتيات الضعيفات البائسات اللاتي تبتذن الأسرة أو  
 اجتنبن الخطوب من أصولن فهن مشردات يستقبلن الحياة جاهلات  
 بها غافلات عنها ، والحياة تلعب بهن ، تقلقهن من مكان إلى مكان ،  
 وتنقلهن من شر إلى شر ، حتى ينتهي بهن القضاء إلى القول الظاهر أو إلى  
 القول المنكر ، فإذا هن قريبة لهذا أو لذلك ، يلقين العار والحزى ،  
 ويلقن البؤس والضم ، ويلقن المرض والشقاء ، ويلقن الألم دائماً ،  
 وقد يلقي الموت أحياناً . . . ؟ !

لم يفكر آمنة في شيء من هذا حين انطلقت مع الصباح من بيت  
 أسرتها كما ينطلق السهم ، ومضت أمامها متدفقة لا تحس جهداً ولا مشقة ،

بل لا تحس حركة ولا نشاطاً ، بل لا تشعر بأنها تمضي كما يمضي السهم  
 لأنها لم تكن تفكر إلا في مسجى قد أفلتت منه وهي تريد أن تبعد عنه ،  
 وفي حرية قد دفعت إليها وهي تريد أن تنفخس فيها انغماساً .

فهي تمضي وتمضي لا تقف ولا تلتفت عن يمين ولا شمال ولا تلتفت  
 إلى وراء ، كأنها بطل من أبطال هذه القصص التي تتحدث بها الجذبات  
 والأمهات ، قد مضى لغايته ووعي نصيحة الناصح ، فهو لا يلتفت  
 مخافة أن يتركه البوار إن حول وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه ، والفتاة  
 تسمى بسرعة تستقبل بوجهها المشرق الكتيب وجسمها الضئيل النشط  
 ضوء الشمس وتسمي الصبح واستيقاظ الحياة والأحياء ، وما تزال كذلك  
 حتى يضرها الضحى وحتى تضرها الحياة التي تشعلت من حولها ، وإنما  
 هي مضطرة بحكم الفريزة وبحكم هذا الإحياء الذي أخذ يترك جسمها  
 الضعيف شيئاً فشيئاً إلى أن تمضي مبطة وتسمى هوناً . ولا يكاد يتصف  
 النهار حتى تبلغ البحر وحتى تعبها ، ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر  
 حتى تكون قد بلغت مأمنها وأفلتت من طلب الطالبين واثبتت إلى قرية  
 من القرى قالت إليها تريد أن تبلغ عند أهلها حظاً من راحة وشيئاً من  
 طعام وأن تنفق عندهم الليل .

نعم إنى لأراني في هذه الطريق وحيدة شريدة لا أملك إلا نفسي  
 الضعيفة البائسة ، ولا جسمي النحيل الضئيل ، ولا ثياباً بالية أو كالبالية ،  
 وأنا مع ذلك لا أحفل بما تركت ولا بمن تركت ، ولا أسأل عما أنا  
 مقدمة عليه من الأمر ، ولا عن أنا مقبلة عليهم من الناس ، إنما هو  
 الهيام في الأرض والسكر بهذا الشراب الخطر الذي نسميه حب الحرية



والذي يكلفنا أحياناً من أمرنا شططاً . أكنت خائفة . . . ؟ أكنت  
آمنة . . . ؟ لا أدري ! وإنما كنت أشعر بالأمرين جميعاً يتعاقبان على  
قلبي كما يتعاقب الليل والنهار على الأرض وما عليها .

كنت أطمئن إلى أنني لن أرى أمي ولن أسمع صوتها ، ولن أرى أهل  
الدار وأشارهم في شيء ، ولن ألتقي ذلك الرجل المحرم ذا النفس  
الفاجرة والقلب الفليط ، ولن أخضع لغلظته ولن أحتمل تقربه إلى وترضيه لي ،  
فيمتلئ قلبي أمناً وهنوءاً وتيسر لي الحياة عن أجل الصور وأحفلها  
بالأمان والآمال ، وأجد في ذلك قوة وشجاعة وصبراً ، فأمضي لا يدركني  
الإعياء ولا ينالني الكلال . ثم كنت أذكر أختي ولا سيما بعد أن عبرت  
البحر وأخذت الطريق المختلط على ، وأخذت أحاول أن أعرف أين انحرف  
بنا خالنا المحرم عن الجادة إلى ذلك الفضاء العريض الذي اقترف إثمه فيه .  
كنت أذكر أختي فما أكاد أثير ذكرها حتى يثور ظلها أمامي وإذا أنا  
أراها ماثلة ذاهلة كما تعودت أن أراها منذ تركنا المدينة ، وإذا أنا أهم  
أن أسعى إليها وأن أمسها بيدي وأن آخذ معها في الحديث ، وإذا أنا  
أنتبه للخطب وأتبين الحقيقة الواقعة ، وإذا يتابع الحزن تنفجر في قلبي  
وإذا الحزن يجرى مع دمي ، وإذا جسمي كله نار مضطربة ولوعة محرقة ،  
وإذا دموعي تهر على خدي ، وإذا أنا مضطربة إلى أن أنتبه  
ناحية من الطريق لأبكي على مهل على غير مرأى من الناس .

ثم أنهض مستأنفة للسمي ، وإذا أختي تسيرني ، وإذا الظلال التي  
كنت أراها أثناء العلة تطيف بها وتطيف بي ، وإذا ظلال أخرى تملأ الفضاء  
من حولي لا أدري أنجمت من الأرض أم هبطت من السماء ، ولكني أراها  
تكثرت وتخلط وأجمعها من حولي تصخب وتلغظ حتى أخاف على نفسي الخنون .

أنا على ذلك كله ماضية تتقاذفي القرى وتندأني الضياع ،  
أستضيف هؤلاء حيناً وأسأل هؤلاء حيناً آخر ، أعمل في الحقول مرة وأعمل  
في البيوت مرة أخرى ، وهذان اللونان من الشعور يختلفان على قلبي  
ويتعاقبان على نفسي لا يهملني في اللحظة ولا يهينني في النوم ، أنا  
مضطربة دائماً بين أهل الذين فررت منهم فراراً ، وبين أختي وصاحبها  
اللاتي يستجبن لي كلما ذكرتهن كأنما يسمعن دعاء فيسرعن إلى الداعي .  
وأنا ماضية أمامي أتقدم نحو الشرق من يوم إلى يوم ولي من غير شك  
غاية أعرفها وأسعى إليها ، ولكني لا أكاد أتمثلها ولا أستحضرها ، وإنما  
أنا أطلبها غير شاعرة بها كأنما تدفعني إليها الغريزة دفعاً .

أنا ماضية نحو الشرق ، لا أنحرف عن غايتي إلى يمين أو إلى شمال  
إلا لأقضي ليلة في هذه القرية أو لأستريح ساعات أو لأستريح يوماً  
في هذه القرية أو تلك ، ولكني على جناح سفر دائماً ، متجهة نحو  
الشرق دائماً ، ممعة في الشعور بالأمن كلما ازدادت من الغابة دنواً ومن  
المدينة قريباً . فالمدينة إذن هي غايتي من كل هذا السعي ، فيها أتمسك  
الأمن ، وبين أهلها أتمسك الحياة الرادعة . وبيت المأمور هو غايتي من  
المدينة إليه ألقاً وإلى من فيه أفرح . ومن فيه أستعين ، في ظله أريد  
أن أعيش ، وعند أهله أريد أن أودع قلبي ، وعند خديجة من أهله  
خاصة أريد أن أتمسك الراحة لهذه النفس المعذبة ، والشقاء لهذا القلب  
المريض . لن آمن حتى أبلغ هذه الدار ، ولن أبطل من علي حتى أرى  
هذه الوجوه وأسمع هذه الأصوات ، وأستأنف حياتي مع الخدم والسادة  
كمعهدها منذ أشهر قبل أن تأمرنا أمنا بذلك الرحيل المشؤم . إذا بلغت  
هذه الدار فستفقس بدخل دون أن تبلغني ، وإذا اطمأن بي المقام في



هذه الدار فلم يبق الروح إلى نفسى سيلا . ولكن ما خطب أهل الدار وما خطبى إن سألتنى أين كنت ؟ كيف أجيبهم ؟ . . . وجم أجيبهم ؟ أقص عليهم حديثى كله أم أطويه عنهم طياً ؟ بل ما خطب أهل الدار وما خطبى إن رأونى فأنكرونى ثم أبوا أن يفتحوا لى بابهم وأن يلقونى بما أحب أن يلقونى به من الرضا والمطاف والابتسام ؟ ما خطب خديجة وما خطبى إن رأونى فأعرضت عني لأنها وجدت من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من يقوم منها مقامى ويلهيهما كما كنت ألهيها ، ويشاركها فى الجدل واللعب كما كنت أشاركها فى الجدل واللعب ؟ أين أذهب إذا نبت فى هذه الدار ، وإلى من ألتجأ وعلى من أعول إذا تنكر لى أهل هذه الدار ؟

## ١٣

كلا ! بل هذه الدار كما عرفتها رشيقة أنيقة ، مفرية مطمعة ، لا ترد طارقاً ولا تصد راغياً ، ولا تتجهج لزار ولا تنهر بضيف . وإنى لأراها من بعيد فأسرع إليها الخطوة كأنما أدفع إليها دفعا أو كأنما تدعونى ملحة فاستجيب للدهاء . وإنى لأرى دخاناً يصدر عنها وينشر فى البحر فلا أتمثل النار التى يصدر عنها فى المطبخ وإنما أتمثل الطباخ ومن حوله من الخدم يذهبون ويحيثون وأسمع ما يقولون ، وكأنى أشاركهم فيما يأتون من حركة ، وأجاذبهم ما يلفظون به من حديث . وإنى لأدنو من الدار فأرى نافذة مفتوحة فلا أتمثل غرفة خديجة وما فيها من أداة وأثاث ، وإنما أتمثل خديجة نفسها قد جلست إلى بعض ما كانت تلعب به ، أو عكفت

على درس تستظهره أو كتاب تنظر فيه ، وكأنى أشاركها فى اللعب أو أشاركها فى الاستظهار أو أسمع بعض ما تقرأ . وإنى لأدنو من الدار فأتمثل حياة الدار كلها كأنها قد غمرتني وكأنى قد رجعت إلى مثل ما كنت منذ أشهر جزءاً من هذا الكل ، وشعاعاً منتشراً مستفيضاً فى هذه الحياة التى تملأ الدار حركة ونشاطاً واضطراباً .

وهأنذا هذه أبلغ باب الحديقة فلا أتردد فى ولوجه ، وأمضى أمامى مصممة كأنما أعود إلى الدار بعد ليلة من تلك الليالى التى كنت أقضيها مع أمى وأختى فى ذلك المنزل الحقيق ، وإنى لأمضى كما تعودت مسرعة لا ألوى على شيء ، وإنى لأصعد فى السلم لا ألتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، وإنى لأبلغ غرفة خديجة فأدخلها وأصادف سيدتى وصديقتى عاكفة على كتاب تنظر فيه . ولكننا كنا نلتقى على الضحك والعبث فإنا الآن لا نضحك ولا نعبث . . . ١٢ أما هى فواحدة ذاهلة قد أخذت على غرفة ، وأما أنا فغرفة فى البكاء .

ثم هى تسألنى : أين كنت . . . ؟ ومن أين أقبلت . . . ؟ وماذا صنعت فى هذا الوقت الطويل . . . ؟ وأنا لا أجيب . وأنى لى أن أجيب بغير هذه الدموع التى تنهمر ، وهذه الزفرات التى تنفجر ، وهذا الشبه الذى يتردد فى حلقى متصلاً ببعضه ببعض يزداد شدة وعنفاً حتى يكاد ينشئ لى إلى أزمة من هذه الأزمات التى تفسد أعصاب النساء حين يلح عليهن البكاء . . . !

وسيدتى وصديقتى قد أقبلت على فتلتطف لى وترفق لى وتهوون على بعض ما أجده ، وإن كانت لا تعرف شيئاً مما أجده . ثم يسمع



الشقيق وإذا سيدة البيت قد أقبلت ، وإذا هي ليست أقل دهاءً ولا وجوماً من ابنها ، ولكنها تصرف الفتاة على صرفاً شفقة عليها من هذا المشهد الذي قد يؤذي نفسها الشابة الناشئة ، ثم تدعوني إلى أن أتبعها ، ثم تهدي روعي وتتلطف لي في الحديث وتساألني عن أمري فلا أجيبها بشيء ، أو لا أكاد أجيبها بشيء ، إنما هي جل منقطة غارقة في الدموع فيها ذكر للرحيل على غير موعد ، وفيها ذكر للقرية ورؤية أهلنا فيها ، وفيها ذكر لمصاب عظيم قد ألم بنا هنا لم نكن ننتظره ولا نقدره ففقدنا أختي ، وفيها ضيق بحياة القرية في ذلك الحزن المتصل ، وحزن إلى السادة الذين لم ألتق في خدمتهم إلا خيراً وبرا ، ثم فيها ذكر العودة المنفردة في الطريق الطويلة الملتوية المخوفة ، ثم انهمار للدموع وانكباب على سبدتي أقبل بديها وقدميها كأنني أشفق أن تردني ردّاً أو تدفعني عن الدار دفعا ، ولكنها حذبة على ، رفيقة بي ، تقيمني وتهضني وتأمرنني أن أذهب إلى حيث أوصح عن أمري وأستأنف عملي في الدار ، كأنني لم أفارقها شهراً ، وكأنني لم أفارقها فجأة في غير استئذان ، وكأنني لم أزد على أن غبت يوماً أو أياماً ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه . . . وأنا أذهب إلى حجرتي فأراها كما تركتها لم يشغلها أحد ، ولم تسكنها خادم بعدي ، ثيابي فيها كما تركتها وأدواتي فيها كما غادرتها لم ينقل شيء منها ولم يحول عن مكانه ، ثم ما هي إلا أن ألتق الخدم ويلقوني بشيء من الدهش والوجوم ، وأخذ في بعض الحديث ، ثم أنظر فإذا كل شيء قد استقر وإذا أنا واحدة في الدار من أهل الدار كأن لم يكن بيني وبين الدار فراق . ثم أعلم ما أعلم من حزن خديجة على ووجدها بي ، وإياها على أهلها

أن يتخذوا لها خادماً غيري ونزول أهلها عند ما كانت تريد . ثم أستأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحيها من قبل . ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب ، وما أشد ما احتملت من الآلام ، وما أطول ما أنفقت بعيدة عن الدار من الشهور ! وكيف لا تطول هذه الأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث ما كان ، وقد لقيت فيها من الشر كل ما لقيت ، وقد واجهت فيها الموت ، وقد عانيت فيها المرض ، وقد تعرضت فيها للجنون أو لثل الجنون ، وقد تعرضت فيها لكل ما تعرضت له من ألوان الفتنة والمحنة والخوف . . ؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئاً وهم من أجل ذلك لا بكادون يشعرون بأني فارقهم أو غبت عنهم ، ولكن أنا أعلم من هذا كله ما أعلم ، وأنا من أجل هذا أشعر بأني قد فارقهم وقتاً طويلاً ، أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن ، وأطول مما يحسب الناس . إنهم قد نسوا رحلتي ونسوا عودتي وانصرفوا إلى أمرهم لا يفكرون في ولا يسألون عني . ولكني أنا لم أنس من هذا شيئاً . بل أنا أشعر شعوراً غريباً ، أشعر أنني قد أخذت من أهل الدار فتاة فلفنتها هناك في قرية بعيدة من قرى الريف تظللها هضبة من هذه الهضاب التي تلي الصحراء ، ثم رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئاً . أخذت منهم آمنة الضاحكة في أكثر الوقت ، الباسمة دائماً ، أخذت منهم آمنة الغرة الساذجة التي تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شيء ، والتي لا ترى في الحياة إلا لعباً ، والتي تحكم وكأنها تلعب وتدرس وكأنها تلعب ، وتتعلم من الخدمة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب ، لا تعرف



الهم ولا تمنه ، ولا تعرف أن للحياة أثقالاً وتكاليف وإنما تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق ، وابتسام لليل إذا أظلم وابتسام لما يملأ النهار من نشاط ، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام ، أخذت منهم آمنة التي كانت تنشأ وتنمو كما تنشأ هذه الشجيرات في الحديقة وتنمو ، فيها نضرة ولين ، وفيها بهجة وجمال .

أخذت منهم آمنة هذه ففرقت نفسها تفريقاً ، في الطريق حين كنت ذاهبة إلى الغرب تركت بعضها في بيت العمدة الذي ضيغنا حين سمعت لحديث أختي وحين سمعت لحديث أولئك النساء ، وتركنا بعضها لهذه الأشباح الحمراء التي كانت تترامى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمضي بنا الحملان في الطريق الصامتة وقد تقدم الليل وتقل ، ثم تركت أكثرها في ذلك الفضاء العريض فسال مع الدم الذي سال ، ودفن مع الجنة التي دفنت وسوى عليه معها التراب ثم صب عليه معها الماء ، ثم تركت سائرها نهياً لتلك العلة التي ذهبت بما بقي من قصي وإن أبقيت على بقية ضئيلة من جسمي أخذت الحياة تعود إليها بعد البرء قليلاً قليلاً . أخذت منهم آمنة هذه وفرقتها على هذا النحو بين المدينة والقرية ثم رددت عليهم آمنة أخرى قد تشبه تلك في بعض ملامح الوجه ، وقد تشبهها فيما بقي من اعتدال القامة ، وقد تشبهها في طبيعة الصوت وبعض الحركات ، ولكنها تخالفها بعد ذلك في كل شيء . رددت عليهم آمنة الحزينة دائماً ، الواجدة في أكثر الوقت حتى كأنها بلهاء غافلة . رددت عليهم آمنة التي رأت الشر بشعاً والإثم عريان والحرم منكراً ، ففلأت نفسها من هذا كله وإذا هي سيئة الظن بكل إنسان ،

وإذا هي شديدة الإشفاق من كل شيء ومن كل إنسان ، وإذا هي عابسة للنهار إذا أشرق عابسة لليل إذا أظلم ، وقد اتخذت لنفسها من ظلمة الليل الخالكة ثوباً كثيفاً ضافياً فأسبغت عليها إسياعاً وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وابتسام .

نعم ، رددت عليهم آمنة هذه التي لا تمسك الدموع إلا ريثما ترحلها ، ولا تبسط الوجه إلا ريثما تقيضه ، ولا تقبل على شيء إلا ريثما تتصرف عنه ، ولا ترى في اللعب إلا ثقلاً ، ولا ترى في الخدمة والدرس إلا عناء وجهداً . وريح أهل الدار ! أيقبلون مني هذه الفتاة التي رددتها عليهم ويتسلون عن تلك الفتاة التي أخذتها منهم ؟ ويحي أنا من أهل الدار إن لم يعرفوني ولم يألّفوني كما عرفوا تلك الفتاة وأقربها ! ولكنهم قوم كرام لا يضيقون بي ولا ينفرون مني ولا يلقونني إلا بالعناية والرعاية والعطف . أولم أتحدث إليهم بذلك المصائب العظيم الذي قد ألم بنا فلأ قلوبنا حزناً وبؤساً ؟ وإذن فهم يعزوني ويأسون جراح قلبي ، وهم لا ينظرون إليّ كما ينظرون إلى خادم يجب أن تعمل أو إلى رفيقة يجب أن تعين فتاتهم على ما في الحياة من جد ولعب ، وإنما ينظرون إليّ كما ينظرون إلى فتاة بائسة قد آوت إليهم فهم يؤوئونها مكرمين لها مشفقين عليها ، يؤثرونها بالرحمة والراحة والهدوء .

وخديجة . . . وريح خديجة ! ما كنت أحسب أن فتاة نشأت في مثل ما نشأت فيه من نعم ، ودرجت على مثل ما درجت عليه من ترف وتعودت ألا تعيش إلا فرحة مريحة ، ما كنت أحسب أن هذه الفتاة تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب الحزين ، وكيف تبلغ



بغيريتها ما لم يكن بد من التجربة الطويلة العسيرة لبلوغه بالعقل والإرادة .  
 إنها لفهمتي في غير سؤال ، إنها لترحمي في غير تكلف ، إنها لترثي  
 لي في غير كبرياء ، إنها لتصرف بي عما ألفت من فرح ومرح ومن  
 دعاية ولعب ، إنها لتحدث إليّ حديث الفتاة العاقلة الرشيدة ، إنها  
 تشغلي عن همي بما تقص عليّ من أمرها أثناء غيبي وبما تقرأ عليّ مما  
 قرأت أثناء هذه الغيبة وبما تقرؤني مما لم أشاركها في قراءته ، إنها لتفتح  
 لي أبواباً ما كانت لتخطر لي على بال . إنها لتبني نبأ عجيب لم أفهمه  
 إلا بعد مشقة وجهد وتكرار ! تبني بأنها قد أخذت تتعلم لغة أخرى  
 تسميها الفرنسية فلا أفهم منها شيئاً ، لغة أخرى ! وكيف يكون ذلك ؟  
 إني أعرف أن هناك لغة الريف التي كنت أتحدثها ، ولغة القاهرة التي  
 تحدثها خديجة ، ولغة ثالثة تقرؤها في الكتب فلا نعجز عن فهمها  
 وإن وجدنا فيه بعض العسر ، فكيف توجد لغة أخرى ، وما عسى أن  
 تكون ، وكيف يتعلمها الناس ؟ إنها تظهر لي كتباً ما كنت أقدر  
 أن أراها ، وإني لأنظر هذه الكتب فلا أفهم منها إلا بعض الصور ، وإني  
 لأحاول النظر في الحروف فلا أعرف لها أولاً ولا آخراً ، ولا أعرف لها  
 رأساً ولا ذيل ، وإنها لتضحك في رفق ، وإنها لتحس شيئاً من الكبرياء  
 لأنها تعلم ما لا أعلم ، وإنها لتحاول القراءة في هذه الكتب فتبلغ من ذلك  
 ما لا أبلغ ، وإنها لترجم بعض ما تقرأ فأفهم عنها ما تقول بالعربية  
 وأدهش وينتهي بي الدهش إلى أقصاه . . .

وهنا أستاذها السوزي قد أقبل وإنها لطلّاه فيتحدث إليها وترد عليه

بهذا الذي لا أفهمه فأزداد بها وبه إعجاباً وفتنة . وهذه خديجة تكبر  
 في نفسها وتكبر في نفسي وتقوم مني مقام المعلم ، وإذا هي تقرؤني  
 هذه الجروف التي لم أكن أقرؤها ، وتعلمني هذه اللغة التي لم أكن أعلمها ،  
 وإذا أنا تلميذة لها في الصباح وتلميذة معها في المساء ، وإذا المعلم يلزم  
 وإذا التلميذة على حظ من ذكاء ، وإذا أنا أجد في هذه الحياة الجديدة  
 وفيما نقرأ معاً وما نتعلم معاً عزاء أي عزاء ، ونسياناً أي نسيان ؟ وإذا الأستار  
 تلي شيئاً فشيئاً بيني وبين هذا الماضي البشع القريب ، وإذا كل شيء  
 في هذا الماضي ينمحي قليلاً قليلاً إلا شخصين اثنين لا يتمحيان  
 ولا يتضاءلان ، وإنما يرتسمان في نفسي ارتساماً قوياً . ويتمثلان أمامي  
 تمثلاً متصلًا ملحاً ، وهما شخص أختي صريعاً يتفجر من صدرها الدم  
 في الفضاء العريض ، ويغمغم فيها بكلمات لا أفهمها ، وشخص ذلك  
 المهندس الشاب الذي أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء العريض  
 الذي صرعت فيه .

نعم ! ذلك المهندس الشاب الذي أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء  
 العريض الذي صرعت فيه . لقد منحها الحياة ، ولقد قضى عليها بالموت .  
 وهل ذاق البائسة من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه الثمرات الحلوة المرة التي  
 جنبها في هذه الدار القائمة من دارنا غير بعيد ! إلى هذه الدار دُفنت



حين هبطت من أقصى الريف ، فأخذت تعرف الحضارة وتألفها وتبلى من طياتها مارتق لها العيش وقد كان غليظاً ، وحبيب إليها الدهر وقد كان بغيضاً . فيها عرفت البرق واطمأنت إلى النعم ! ولم تكد تنشأ وتنمو حتى مدّ لها الحب ذراعين فيهما النعم والبؤس ، وفيهما الرحمة والعذاب ، فأمرعت إلى ما كان يترامى لها من ذلك جاهلة له ، مفتونة به ، مهالكة عليه ، ثم انصرفت كارهة عما يلت ، وما أدري ماذا كان يحزنها ويمزق فتادها تمزيقاً حين كانت تقص على أبناءها وتحديثي بأحاديثها : أهو الندم على ما فعلت من ذنب واقررت من خطيئة ، أم هو الأسف على ما فارقت من لذة وحرمت من نعم ؟ وما أدري ما الذي كان يملأ قلبها فرقاً وورعاً حين كانت تترامى لها تلك الأشياح الحمراء : أهو الموت الذي كانت ترى تذييره منكراً بشماً وسمماً صارخاً ملحاً ، أم هو اليأس الذي كان يقطع الأسباب بينها وبين هذا المهندس الشاب ، ويلقى بينها وبين الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا سبيل إلى أن تهتاز ؟

نعم ! هذا المهندس الشاب لقد ارتسم شخصه في نفسي ارتساماً قوياً ملحاً ليس إلى محو من سبيل . ولقد كنت أرى أختي فإذا هو ملازم لها كأنه الظل ، بل كأنه ظل من هذه الظلال الحمراء التي كانت تلازمها حين كنت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض لي في الطريق ! بل لقد تفرقت عن أختي كل هذه الظلال وانمحت انمحاء ، ولم يبق معها إلا هذا الظل الذي لا أكاد أراه حتى تضطرب نفسي اضطراباً عنيفاً ، وحتى يثور في قلبي شعور قوي مختلط غريب شديد التعقيد ، شعور فيه الخوف والرغبة ، وفيه البغض ، وفيه شبه الحب ، أو حب الاستطلاع على أطل تقدير . .

من هذا الشاب ؟ أو من عسى أن يكون ؟ وكيف يمكن أن يكون ؟ أي شيء فيه أغوى هذه الفتاة البائسة ودفعها إلى ما دُفعت إليه ؟ ما عسى أن يكون حظي منه إن لقيت ، وأن يكون حظي مني إن لقيني ؟ أو أحبه أم أبغضه ؟ أأخني أم يبغضني ؟ ما هذه الغواية التي أفسدت على أختي أمرها وأفسدت علينا جميعاً أمرنا ، وقضت على أختي بالموت ونقصت علينا جميعاً لذة الحياة ؟ خواطر كانت تملأ قلبي إذا أصبحت ، وكانت تملؤه إذا أصبحت ، وكانت تلح عليه بين ذلك فلا تردّ عنه إلا في شيء من الجهد والعنف حين تلح على خديجة في الحديث أو في القراءة أو في مشاركتها فيما كانت تحرص على أن أشاركها فيه من الدرس والامتحان .

خواطر كانت تملأ قلبي في اليقظة ، وكانت تملؤه في النوم ، وكانت تصرفه عن كل شيء إلا عن هذه الفتاة التي سفك دمها في ذلك القضاء العريض ، فذاقت الموت وذهبت نفسها إلى السماء وهوى جسمها إلى الأرض وهيل عليه التراب ، وإلا هذا الفتى الذي ما زال يغفو ويروح فرحاً مرحاً ، مقتبلاً مستبشراً ، تبسم له الحياة ويبسم هو للحياة .

ليكني أدري أيدى ذكر ضحيته تلك أم قد نسيها . وليكني أدري أيدى ذكرها إن ذكرها في شيء من الرفق بها والمطف عليها والحنين إليها ، أم يذكرها إن ذكرها في إعراض الزاهد وانصراف المزدري ! وأين تكون هذه الفتاة من نفسه ، وما أكثر الفتيات في نفسه ! لقد كان بالقياس إليها كل شيء ، ولم تكن هي بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره وعرف هو غيرها كثيرات . لم تذوق لذة الحياة إلا بين ذراعيه ، وما أكثر المواطن التي ذاق هو فيها لذات الحياة ! وما أكثر ما ذاق من ألوان اللذات وما يلا من صنوف النعم ! وليكني أعرف كيف يلقى ذكرها إن ذكرت له : أيسم



لصورتها أم يلقاها بالعروس ! بل ليتني أعرف كيف يلتقي النبا البشع المروع  
إن ألقى إليه : أبحرته أن يعلم أنها ذاق الموت وأنها ذاقته لأنه هو قد دفعها  
إليه ، أم يقع هذا النبا من نفسه موقعاً يسيراً فلا يثير في قلبه حزناً ولا أسفاً  
ولا يسلط على نفسه لوعة ولا ندماً !

وكنك امتلأت نفسي بهذا المهندس الشاب ، حتى لقد كنت  
أحس القرار منه فلا أظفر به إلا في جهد أي جهد وعناء أي عناء ، وحتى  
لقد أنكرت نفسي وأنكرت من كان حول من الناس والأشياء ، وأنكرتني  
من كان حول حين طال عليهم ما كنت مغرقة فيه من الوجوم والذهول ،  
إلا خطيئة فإنها لم تنكرني ولم أنكرها ، وإنما مضت فيما كانت فيه رفيقة  
في عطفها عليّ ، تعزيني وتسليني وتفتن في ذلك ما وسعها الافتتان . وأنا  
أعرف لما هذا فأحمد وأقدره وأرد عليا بعض ما كانت تسدي إلى من  
جيل ، فأصرف إليها حين ألقاها عن هذه الخواطر ، ويصرغ قلبي لما  
أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس ، ولكن لا ألبث أن أعود إلى  
ما كنت فيه من وجوم وذهول . وتحس هي مني ذلك فتصرف عني  
بعض الشيء وتركني لما أنا فيه ، كأنها تقدر أني أجد في هذا الوجوم  
والذهول لذة وراحة واطمئناناً .

وما تزال هذه الخواطر تلح علي وتستأثر بي حتى تستحيل إلى شيء من  
الرغبة القوية الملحة في أن ألقى هذا الشاب فأسمع منه وأتحدث إليه . وأنا  
أتلصص أخباره وأتبع أسرارته وأتلفظ ما يلتقي عنه من حديث . ولم تكن  
داره بعيدة من دارنا ، وكأن الظروف قد انتمرت في فضاءات لي أن أرى  
ذهابه وحيثه من نافلتني حين يغدو من داره أو يروح إليها ، من هذه  
النافذة التي طالما كنت أبادل أختي منها الإشارة وأسارقها منها بعض

الحديث . من هذه النافذة التي لم أذكرها ولم أدن منها حين عدت إلى  
الدار ، وإنما مكثت أياماً وأسابيع أجهلها جهلاً وأهملها إهمالاً . ثم خطرت  
لي فجأة وفرض علي مكانها فرضاً ، فإذا أنا أدنو منها وجلة وأفتحها جزعة  
عزونة ، أريد أن أقف إليها لأتمثل فيها صورة « هنادي » ذاهبة جائية ،  
متغنية بما كانت تنغي به من أغاني الريف ثم أغاني المدينة . وإني لأخذ  
موقفي من النافذة في الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، وإنما هو  
قلب ينقطر ، ودموع تنهر ، وصورة لأختي لا تأتي من الدار ولا تعبر  
إلى ما بيني وبينها من طريق ، وإنما تأتي شاحبة حزينة من قلبي هذا  
الأسف الحزين . وأنا مع ذلك أطيل الوقوف إلى النافذة وأكرره ، وأدنو  
منها كلما أتيح لي الدنو في النهار حيناً وفي الليل أحياناً . آلفها وتآلفني ،  
حتى أصبح وقوفي منها وجلوسي إليها عادة طبيعية من عاداتي كلما دخلت  
الحجرة وأغلقت بابها من دوني . والأيام تمضي وتتبعها الليالي ، وإذا أنا  
أقف إلى النافذة وأجلس إليها فلا تنهر الدموع ، ولا تتمثل لي صورة  
أختي شاحبة كئيبة ، وإنما أنا أرى أمامي وأنظر ، فإذا صورة أختي كما  
كنت أعرفها تذهب وتجيء . صوت أختي يتشر في الفضاء فيملؤه فرحاً  
وسروراً وبهجة وسروراً ، متغنية بهذه الأغنية التي طالما كانت ترددها  
بصوتها الرخيم المحتل العذب فيحملها الهواء إلى النفوس كأنها قطرات الندى :

آه يا نا بانا من غرامه يا نا وإن كنت أحبه ما على ملامه

وما كنت أفهم من هذه الأغنية إلا ما يفهمه الناس جميعاً ، إن كان  
الناس يفهمون منها شيئاً ، فهي شائعة ذائعة في المدينة وفيما حولها من القرى  
تسمعها في كل عرس وتسمعها من كل امرأة ومن كل فتاة ، بل من كل



حسية تحاول الغناء أو تقصد إليه . أما الآن فإلى أنتمل أخى كتيبة حزينة  
ياثسة ، كأنها ظل شاحب ليس له ثبات ولا استقرار ، وإنما هو هائم  
مضطرب يصدر عنه صوت ضئيل نحيل كأنه الصدى ، وهو ينتشر في  
الجو انتشاراً يملأ القلوب لوعة وأسى ، وهو يحمل هذه الأغنية كأنها شرر  
النار لا تمس قلباً إلا أحرقته إحراقاً ، ولا تبلغ نفسها إلا فرقها تفريقاً !  
ما لي أسمع هذه الأغنية فأفهم منها ما لم أكن أفهم ، وأعلم منها ما لم أكن  
أعلم ، وأحس منها ما لم أكن أحس ، وأستكشف فيها من المعاني والمرامي  
والأغراض ما لم يكن يخطر لي من قبل على بال ؟

إن هذه الآهة التي يرسلها الصدى النحيف ممثلة ضئيلة لا تكاد  
تثبت ولا تكاد تنتهي ، لتثير في نفسي عواطف لم أكن أعرفها ولم يكن  
لي بها عهد . وإن هذا النداء ليصور نفسي الأني كما يصور نفسي  
الاستغاثة ، وكما يصور نفسي اليأس من البر حين يتكرر . وإن هذا  
الاعتذار ليصور نفسي الهيام في غير احتفال بالعاقبة ، ولا ندم على  
ما كان ، ولا تقدير لما هو كائن . وإنه ليصور نفسي جرم هذا الحال  
الآثم الذي سمع الأغنية ألف مرة ومرة فلم يعقلها ولم يفهمها ولم يرى  
هذه الحية الهائمة من اللوم ، ولم يعفها من الإثم ، ولم يصرف عنها العقاب ،  
لأنه جامد القلب جاف الطبع ، خشن النفس غليظ المزاج ، لم يذق لذة  
الحب ولا ألمه ، ولم يعلم أن من الحب ما يكون فوق اللوم ، وما يكون فوق  
الإثم ، وما يكون فوق العقاب .

نعم ! وإلى أسمع هذا الصوت الضئيل النحيل ينشر هذا الغناء اليائس  
الحزين ، فأتصور هذا المهندس الشاب قد برع بحاله حتى أصبح فتنة

لا تنى وصحراً لا يقاوم ، وقد رقّ حديثه حتى أصبح شركاً يصيد القلوب  
وحباله تختلس النفوس ، وقد لطفت حركاته حتى لم يبق للبال شئ عنيها  
سبيل . وإلى لأنظر فإذا هذه الأغنية تثير أمانى صوراً ثلاثاً : صورة هذا الفتى  
الجميل الرائع يغرى بالإثم ويدفع إليه ، وصورة هذا الشيطان الآثم المريد  
بأخذ بالإثم ويعاقب عليه ، وصورة هذه الفتاة البائسة اليائسة يتنازعها الإغراء  
المضني والعقاب المقتي . ثم أنظر إلى هذه الصور فأسال نفسي أين أنا منها ؟  
أما خالي فإني أبغضه بغضاً لا حد له ، ولو ظفرت به لمزقته تمزيقاً .  
وأما أخى فإني أرى لها رثاء لا حد له ، ولو استطعت لرددت إليها الحياة .  
وأما هذا المهندس الشاب فما أدري أين يكون مكاني منه : أهو مكان  
المبغضة العدو أم هو مكان المحبة الهائمة ؟ إنه النار المضطربة ، وإلى القراشة  
التي تهفو إليها وتكلف بها ولكن عن علم بأنها محرقة مهلكة . . . لأعلمن  
من علم هذا المهندس الشاب أكثر مما علمت ، . وليكون لي منه مكان  
لم أكن أقدّره . لأطفئن هذه النار أو لأحرقن بلهيا المضطرم !

ومنذ ذلك الوقت أخذت أستيقن بأن حياتي موصولة بحياة هذا الشاب ،  
وبأن مقامي في بيت المأمر موقوف ، وبأن انتقال من إلى بيت هذا  
الشاب محتوم إن لم يتم اليوم فسيم غداً .

ولزمت النافذة أرتب منها الدار أثناء النهار وأوائل الليل . كأنما وكلت  
بحراسها أو تتبع ما يجري فيها . وما هي إلا أن أعرف مواعيد غدر الفتى  
ورواحه ، وخروجه من داره للسمر إذا أقبل الليل ، ورجوعه للنوم إذا



انقضى من الليل أكثر من ثلثه ، وإذا أنا قائمة إلى النافذة في هذه  
المواعيد أريد حين يخرج ، وأراه حين يدخل ، ولا تطمئن نفسي لأمر من  
الأمور أو تمن من الأحداث إلا إذا رأيت شيئاً ليك النهار ورائها بعد الظهر .  
فإن حيل بيني وبين ذلك لطارئ من قبله أو من قبلي فهي الحياة  
المضطربة ، والنفس المفرقة ، والفكر المشرذم ، والقلب الذي لا يهدأ ولا يستقر .  
ثم يشتد الأمر بي وتلح الرغبة في هذه المراقبة على ، وإذا أنا أتلصص  
الأيام التي لا يخرج فيها من داره مع الصبح فأبقي فيها أمام النافذة أترقب  
ما أرجع أنه لن يكون ، ولكنني أترقبه على كل حال لأنني لا أريد أن  
يقوتني مخرجه من الدار ، كأنما اتصلت به حياتي اتصالاً ، ومدت  
الأسباب المتينة بين هذه الدار وبين قلبي ونفسي وعيني ، فهي لا تبرح  
خاطري مهما تكن الظروف ، وهي تجذبني إلى النافذة جذباً . وأنا أحس  
مع ذلك أن هذا ليس إلا أول الشر ، وأن يوماً قريباً أو بعيداً سيأتي من  
غير شك لا تجذبني الدار فيه إلى النافذة لأراها ولأرى هذا الشاب  
خارجاً منها أو عائداً إليها ، بل تجذبني الدار إلى نفسها لألح بابها وأعرف  
أصحابها ، وأتحدث إلى من فيها . ولو أنني أرسلت نفسي على حيتها وخلعت  
بينها وبين ما كانت تريد لما تأخر مقدم هذا اليوم ، ولكنني دافعت نفسي  
عن هذه الدار دفاعاً شديداً ، وجادلت نفسي في الاتصال بها جدالاً  
طويلاً ، وظفرت من هذا الجدل وذلك الدفاع بتأخير اليوم المحتوم  
أسابيع بل أشهراً لست أدري أكانت طويلاً أم قصاراً ، ولكنني أعلم أن  
احتمالها كان ثقيلاً ، وأني كنت لا أستقبل النهار حتى أستيقظ أن الهزيمة  
ستم فيه ، ولا أستقبل الليل حتى أتي بأنه لن يتقدم حتى يكون التسليم

والإذعان . وأمضي مع ذلك في جهاد نفسي ومدافعتها . حتى إذا استقر كل  
شيء ، وغلقت الأبواب ، وانقطعت سبيل إلى الدار ، اضطرت إلى أن  
أرى إلى مضجعي ، وجلت لنفسي يوماً من أيام النضر وأمداً من آماد  
الفوز ، وأجلت الهزيمة والتسليم إلى غد .

وإني لأرى نفسي ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضي وأخذت  
طلّاع الليل الشاحبة تغزو الأرض ، وإني لأراني خارجة كالمنسلّة من دار  
الأمور ، ساعية كالهاربة التي تحرص على الاستخفاء ، أدور حول الدار  
بجورة أسوار الحديقة حتى لا أكاد أمسحها مسحاً ، ثم منعطفة بعد  
قليل ، ثم منطلقة كالسهم حتى أقطع ما بين الدارين من طريق . وألح  
حديقة المهندس ، ثم أسعى هادئة مضطربة معاً نحو البستاني كأنما  
أريد أن أسأله عن شيء ، حتى إذا بلغته لم أستطع أن أقول له شيئاً ،  
وإنما وقفت أمامه ذاهلة غافلة بلهاء بملكني الخوف ويغمرني الحياء .  
أريد أن أمضي أمامي حتى أدخل الدار وأبلغ غرفة « هنادي » فأقضي  
فيها لحظة أو لحظات ، ولكنني لا أستطيع أن أقدم ، والبستاني يسألني  
من أنا ومن أين أقبلت وماذا أريد ؟ فإذا ألح عليّ في السؤال وأحسست  
أن صمتي يطول وأن الرجل سينتهي إلى الضيق بي وبما أعرض عليه من  
غفلة وبله وذهول ، وليت مدبرة ، وانصرفت نافرة لا ألبس على شيء ،  
كأنني أخشى أن يتبعني تابع أو يتعقبني متعقب . وما أزال أشند في العدو  
حتى أبلغ دارنا فأنسل إليها لم يشعر بخروجي منها ولا بعودتي إليها أحد .  
ثم أمضي متجاهلة متغافلة حتى أبلغ غرفتي وأخذ موقعي من النافذة وقد  
جلت على نفسي بعض الهزيمة وإن لم أنه بها إلى الغاية .



على ألقى الطريق بين هاتين الدارين ، وألفت البستاني والاختلاف إليه ، والأخذ معه في أطراف من الحديث ، وتبادل الإشارات معه من النافذة ومشاركته بعض الكلام .

ثم لم تتصل الأيام بيني وبين هذا البستاني حتى كان الظاهر من أمر هذا المهندس الشاب عندي واضحاً مبرحاً : أعرف من عاداته وأطواره ومن ذهابه وإيابه ومن جده وهزله ما يمكن لمثل أن يعرفه حين يتصل بخدمة والمقر بين إليه .

على أن المعرفة لم تقتصر على البستاني وإنما تجاوزته إلى الخادم : فقد كان هذا المهندس لا يستطيع أن يكتب بستانيه ، وإنما هو في حاجة إلى خادم تطلع من أمره وتشرف له على نظام الدار . وقد علمت أن أختي لم تكد تفارقه حتى تعجل البحث عن خلفها ، واهتدى بعد قليل من الوقت إلى هذه الفتاة الجميلة الراحلة ذات الوجه المشرق والجسم البض والعقل الضيق القصير . اهتدى إلى « سكينه » هذه التي أقامت عنده خليفة لأختي ، والتي كنت أتحدث إليها فلا أرى عندها غناء ، ولا أجد في الاستماع إلى أحاديثها لذة ، ولا أجد نشاطاً إلى أن أشاركها فيما نخوض فيه من لغو . ولكني مع ذلك كنت حريصة كل الحرص على أن تشتد الصلة بيني وبينها وتزول الكلفة . ولم يكن في هذا مشقة ولا عسر ، فما أسرع ما اتصل الحديث ! وما أسرع ما انتهينا به إلى الدخائل والأسرار ! وما أسرع ما أحسست في نفسي عداوة آتمة تشتد كل يوم وتتمو حتى تملأ قلبي وتغمر على كل أمرى وتكاد تخرجني عن طوري وتدفعني إلى ما لا خير فيه . فقد فهمت - وليني لم أفهم - أن سكينه لم تخلف هنادي على الإصلاح من أمر الدار والقيام بما تحتاج إليه من خدمة فحسب ،

وإنما خلفها على قلب هذا الشاب إن كان لهذا الشاب قلب ، بل خلفها على هواه ومحبته وعلى إيمانه وغوايته ، وما أكثر ما لهذا الشاب من الهوى والمحبون ، ومن الإثم والغواية ! إنما هو صائد يحبل الفتيات احتيالا ويختلبن احتلاباً ، يصرفهن عن الحادة ويتحرف بهن عن القصد ، حتى إذا بلغ منهن ما يزهده فيهن خلى بينهن وبين ما ينتظرهن من الموت أو من حياة هي شر من الموت . وإذن فقد خان هنادي ولم يحفظ لها عهداً ولم يستبق لها مودة ، ولم يكد يفارقها حتى انصرف عنها وزهد فيها ، والتمس لذته وهواه حيث استطاع ، لم يحفل بما قدم من سوء ، ولم يحفل بما قدمت إليه من تضحية ، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب يتفق فيه الوقت ويستعان به على أحمال الحياة وتسلو به الغربة في مدن الأقاليم .

هو خائن إذن ، وهو يضيف إثم الحياة إلى إثم الغواية ، وهو خلق أن يلقي جزء هذين الإثمين كأشعث ما يكون الجزء ، وهو لاق حظه من هذا الجزء في يوم من الأيام ، ولاقيه من يد آمنة هذه التي شهدت الموت مرتين : شهدته حين عُدِي على أختها من يد ذلك الخال الأثم في ذلك الفضاء العريض ، وشهدته حين عُدِي على ذكرى أختها من يد هذا المهندس الشاب الغاوي وفي هذه الدار الصغيرة الأنيقة التي يقوم عليها البستاني وتضطرب فيها سكينه كما كانت تضطرب فيها هنادي .

أغيرة هذه التي تضطرب في قلبي اضطراباً وتحجب إلى التفكير في الموت وكيف يساق إلى الناس ، وتحجب إلى التفكير في الخناجر التي تمزق الصدور وفي السم الذي يمزق الأحشاء ؟ أغيرة هذه التي يغلي لها الدم في عروقي ويصعد لها اللهب في وجهي وتقدح لها عيناى بشي ، كأنه الشرر ،



يحمل أهل الدار على أن ينكروا منظري وعلى أن يتساءلوا ما خطبي وإلى  
أي حال سينتهي بي ما أنا فيه من الدهول ؟ ١

أغيرة هذه التي زادت الحزن عن نفسي وأقامت مكانه غضباً ثائراً  
متصلاً لا يهدأ ولا ينتضي ؟ ولئن أغار أو على من أغار ؟ أغائرة أنا لهذه  
الأخت البائسة التي ذقت الموت في سبيل هذا الفتى دون أن يكون  
لتضحيتها أهلاً ؟ أغائرة أنا لهذه الرغبة التي كانت تملأ نفسي وتملك قلبي  
وتدفني دفماً إلى أن أعرف من أمر هذا الشاب ما كنت أجهل ، والتي  
لم تكذب تبلغ غايتها حتى انتهت إلى يأس مهلك لا مخرج منه ولا آخر له ؟  
أغائرة أنا لهذا التفكير الطويل فيمن لم يكن أهلاً للتفكير ؟ لمن هذه الغيرة  
وعلى من هذه الغيرة ، أو لإلام تريد أن تنتهي بي هذه الغيرة ؟

لا أدري ! ولكني أعلم أنها قد جعلت مقامى في دار المأمور صبراً  
وعشرتي لخديجة شاقة ! فقد توحشت أو كدت أتوحش ، وأصبحت نافرة  
من كل شيء حتى من خديجة التي لم أكن أظن أنني سأعرض عنها يوم  
من الأيام . وقد أخذت أحس أن مقامى قد أخذ يتقل ، وأن عشرتي  
قد أخذت تشق على من حولى ، وأن خديجة قد أخذت تجزئني جفاء  
بجفاء وإعراضاً بإعراض .

لك الله يا آمنة ! إلام تلطمك هذه النفس المضطربة التي لا تهدأ ، وهذه  
المواطف الثائرة التي لا تستقر ، وهذا القلب الهائم الذي لا يعرف ما يريد ؟ ١

وأصبحت ذات يوم فإذا شيء غريب يضطرب في جو الدار أحبه  
ولا أتبينه ، وأشعر به ولا أحققه ، ألمحه في وجه المأمور وفي وجه ربة البيت  
حين ينظران إلى خديجة ثم يسترقان نظرات فيها أمل مبتهج وحزن مكتئب ،  
وحين يخلوان للحديث بعد الغداء أو بعد العشاء فتطول بينهما الخلوة أكثر  
عما تعودت أن تطول . وألمحه في هذا الابتسام الذي يهديه المأمور متعباً  
كريمياً إلى أهل الدار جميعاً ، متحدثاً إلى من لم يكن يتحدث إليه ، متلطفاً  
لمن لم يكن يحفل بوجوده ، وفي نظرات طويلة يلقيها على أنا حين يلقاني ،  
وفيما تظهر ربة البيت من تبسط مع الخدم وعطف عليهم والميل إلى أن  
تأخذ معهم بأطراف الحديث .

ألمحه في هذا كله ، ولكني أجد فيه غموضاً يثير ميلى إلى الاستطلاع .  
ويكاد يسلبني بعض الشيء عن المهندس الشاب وعما يقع في داره من حياة  
وإثم وعما يثير في نفسي من غضب وغيرة . وأهم أن أسأل خديجة عن هذا  
الذي ألمحه ولا أستبينه ، ولكني أجدها غافلة لا تلمح شيئاً ولا تحس شيئاً  
فأعرض عما هممت به وأكتفي بالملاحظة والانتظار . على أن الانتظار لم  
يطل ، فما تنقضى أيام قليلة حتى تظهر حركة في دار المهندس الشاب  
تستبج حركة في دارنا ، ثم تتلاحق الحوادث بسرعة ، وإذا هي تملكني  
وتغمرنى وتشتأثر بي وتنسني كل شيء وتذكرنى بكل شيء في وقت واحد



وتخرجني من هذا السكون اليأس الذي لزمته إلى نشاط يائس دفعت إليه دفعا .

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه الاضطراب فأثاثه ينقل من مكان إلى مكان ويناله الإصلاح والتنظيف والترتيب ، ويؤتى إليه بأثاث لم يكن فيه ، بعضه مشترى تظهر عليه الجدة ، وبعضه مستعار يظهر عليه القدم ، كأنما تهبأ الدار لاستقبال بعض الزائرين ، فهي تعد لهم ما يحتاجون إليه من الغرفات والحجرات ومن الأدوات والأثاث . والبستاني مسرف في الحركة مندفع في النشاط ، أراه هنا وأراه هناك ، وقد استعان باثنين أو ثلاثة من شباب المدينة يعملون معه في النقل والتنظيف والترتيب . وسكينة تعمل معهم لا راضية ولا ساخطة ، لا مبهجة ولا مبتسمة ، وإنما هي تذهب وتجيء كأنها أداة لا تعرف الرضا ولا السخط ، ولا تحسن الحزن أو الفرح .

وهذه الحركة المتصلة في بيت المهندس قد أثارت حركة فائرة متقطعة في بيتنا ! فهذا سرير ينقل ، وهذه وسائل تعار ، وهذه آنية تجمع ثم تحمل ، وهذه ربة البيت تكلفني راضية باسمه أن أذهب إلى بيت المهندس فأعين الخدم على بعض ما يعملون ، وأن أشرف على التنظيم والتنظيف والترتيب . وأن أعني بأن تهبأ الدار لاستقبال الزائرين تهيئة حسنة لا عيب فيها ولا نقص . ثم هذه ربة البيت تستعد في بيتها لتهيئة الطعام الذي سينقل إلى بيت المهندس إذا كان الغد ، ولإعداد الوليمة التي ستقام في دارها إذا كان اليوم الذي يليه .

وما أكاد أذهب إلى بيت المهندس وأخذ مع الخدم في العمل والحديث

حتى أعلم - وليتني لم أعلم - ، وأفهم - وليتني لم أفهم - أن أسرة المهندس مقبلة من القاهرة إذا كان الغد لتقيم مع ابنها أياماً أو أسابيع ، وأن هذه الزيارة ليست كغيرها من الزيارات ، وإنما هي زيارة تتم لأمر يراد ، فستخطب بنت المأمور للمهندس الشاب ، وستشهد المدينة أفراحاً لم تشهدها منذ عهد بعيد ، وسيسمع أهل المدينة من ألوان الغناء ما لم يتعودوا أن يسمعوا من قبل ، فلن يقرأ عليهم المولد هذا المغنى المشهور الذي يقيم في عاصمة الإقليم والذي يتعصب له أهل العاصمة وما حولها من القرى وما يجاورها من المدن . ولن يقرأ لهم المولد هذا المغنى الآخر الذي يقيم في أقصى الإقليم نحو الشمال والذي ينافس صاحبه أشد المنافسة ويتعصب له نصف الإقليم أو ما يقرب من نصفه . ولن يقرأ لهم المولد الشيخ المذكور هذا الذي يقيم في المدينة نفسها ويحبه أهل الريف ، ولكن شهرته لا تتجاوز المدينة إلا قليلاً . لن يقرأ لهم المولد واحد من هؤلاء المغنين ، ولكنهم سيسمعون لمغن يأتى من القاهرة ، قد يكون عبد الحى ، وقد يكون الشيخ يوسف ، وقد يكون غيرهما من كبار المغنين . وستأتى العوالم من القاهرة ، وستأتى مغنية مشهورة لتطرب السيدات ، وستقام الزينة وتولم الولايم على أحسن طراز وأجمل شكل ، وسيأتى المنظمون لذلك والمشرفون عليه من القاهرة لا من المدينة ولا من عاصمة الإقليم . وكان الخدم يفيضون في ذلك ، ويمجرون في تفصيله مع هذا الخيال الرينى الساذج الذي يحسب أنه يحضى أمامه إلى أبعد أمد على حين لا يزال في مكانه لم يتجاوزوه أو لم يكده يتجاوزوه إلا قليلاً .

كانوا يفيضون في الحديث عن المغنى والمغنية ، وفي الحديث عن الطهارة



الذين سيهيئون الطعام ، وعن الفراشين الذين سينظّمون الوليمة ويطوفون على الناس بالأطباق والأقداح ، وعن الموسيقى التي ستأتي من القاهرة فتتقضى في المدينة يومين أو أياماً تطرب الناس في الصباح وتطرب الناس في المساء ، وعن المدعوين الذين سيشهدون الحفل والذين يدعون إليه من قريب ومن بعيد ، وفيهم البشawat والبكاوات ، وفيهم العلماء من شيوخ الأزهر . كانوا يفيضون في هذا كله ، ويجدون في الإفاضة فيه لذة يتعجلون بها الحوادث ويستبقون بها إلى ما ينتظرون من فرح وغبطة وابتهاج . وكنت أنا أسمع لأحاديثهم فأفهمها ، وأعي أفلها وأهمل أكثرها ، وأفكر فيما لم يكن بدّ من أن أفكر فيه ، وهو أن هذا المهندس الشاب قد أغوى أختي ثم دفعها إلى الموت ، ثم أخذ يضحك وينهك ما كان يجب لها عنده من حزمة ، ثم هو الآن ينظم الحياة تنظيمًا ، ويريد أن يأنبها ويقدم عليها ويمضي فيها جبهة باسم الدين والعرف والقانون . نعم ! ولن تكون سكينه هذه الغافلة اليهالة التي لا أعرفها ولا تعرفني إلا منذ حين ، لن تكون خليفة هنادي على بيت هذا الفتى وقلبه ومجونه وإثمة ، ولكن التي تخلف هنادي على هذا كله ستكون خديجة ! خديجة أحب الناس إلى وآثرهم عندي وأحسنهم مكاناً من قلبي ، خديجة التي أبجد عندها - وعندها وحدها - العزاء عما لقيت من شر وما احتملت من نكر وما ألم بي من مكروه ، خديجة التي أستعين بها على احتمال هذا الخطب الذي أصابني في أختي وفي أهلي ، هذه هي التي ستراد على أن تأخذ من قلب المهندس الشاب ، ومن بيته ، ومن حياته كلها مكاناً ما ينبغي لفتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادي وأدت ثمنه

بذلك الدم الزكي الذي أريق في ذلك الفضاء العريض ! ولم أكن أسأل نفسي كيف يكون موقع هذا التبا من نفس خديجة حين يلقي إليها : أنتكره وتضيق به ، أم تحبه وتبتهج له ؟ ولم أكن أسأل نفسي كيف تجد خديجة موقفي منها حين أحاول أن أصد عنها حب هذا الرجل اليتيم وأن أرتدّ عنها ، وأن أبذل في ذلك من القوة والجهد ومن الحيلة والذكاء ما أملك وما لا أملك ؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا ، ولكني كنت ناثرة أشدّ الثورة وأعنفها ، مؤمنة أشدّ الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون ، مصممة أشدّ التصميم على ألا يكون مهما تهيأ له الظروف ومهما تنظاهر عليه القوى .

ثم لم أكن أسأل نفسي عن كل هذه الخواطر التي كانت تجيش في صدري وتبعث في هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا التصميم : أكانت خواطر صادقة أم كانت كاذبة ؟ أكنت وفيه لأختي بالعهد مشفقة على حقها أن يضيق ، حريصة على أن أحفظ لها بهذا العاشق الخائن رغم أنفه ، مقاومة في سبيل ذلك قوة الفطرة وقوانين الحياة ، أم كنت أتخذ هذه الخواطر حجة وتعلّة لأختي بها على نفسي ما لا أحب أن تظهر عليه ، وأستر بها دون قلبي ما لا أجد الشجاعة على أن أواجه به في صراحة وجلاء ؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا ، بل لم أكن أسأل نفسي عن شيء ما ، وإنما كنت أفني قوتي وجهدي وتفكيري في أن أحول بين خديجة وبين هذا التدبير الذي يدبر وهذا الكيد الذي يراد . وكثيراً



ما كان يخطر لي أني أحمي خديجة من شر عظيم ، وأحول بينها وبين خطر متكر ، وأقوم دونها أن يفترسها السبع أو يغتالها اللئب ، وأضن بها على أن تبذل لهذا المحرم الآثم الذي لا يعرف حقاً ولا يرحى حرمة ولا يرجو وقاراً لخلق ولا دين . وكثيراً ما كنت أقدر أن قيامي دون خديجة وحمايتها من هذا الخطر الذي يوشك أن يلهم بها قرص يأخذني به الوفاء لما بيننا من مودة ، والرعاية لما لها عندي من جميل . وكثيراً ما كان هذا كله يجتمع ويأتلف بعضه إلى بعض ويحتمل أمام نفسي مجتمعا مؤثلاً قد اتخذ من الوفاء والنصح والإخلاص زينة خلابة ، فإذا هو أمامي مرآة نقية صافية ، أنظر فيها فترد إلى صورة نفس كريهة عظيمة قد ارتفعت عن كل نقیصة ، وأصبحت مثالا للبطولة والشهامة والتضحية في سبيل الأخت التي اغتالها الخطر ، والصدیق التي يوشك الخطر أن يغتالها . ولو أني حولت وجهي عن هذه المرأة بعض الشيء في ذلك الوقت ، ولو أني نظرت في نفسي ولم أنظر أمامها ولا من حولها ، ولو أني تعمقت قلبي وتبينت قرارة ضميري ، لرأيت شراً يا له من شر ، ولشهدت هولاً يا له من هول ، ولعرفت أني لم أكن أني لأختي ولا لصدیق ، وإنما كنت أؤثر نفسي بما أراه خيراً وشرّاً ، وأقف هذه النار المضطربة المتأججة على نفسي وأحبها من أن يحترق بها أحد غیری !

نعم ! ولكني لم أكن أنظر في نفسي ولا أحاول النظر فيها ، وإنما كنت مدفوعة إلى إفساد هذا الأمر الذي يدبر ، ومنع الأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذي كان لأختي منذ حين والذي يجب أن يكون لي بعد حين ، كأنما ورثته عنها بعد الموت !

والغريب أن هذه الحواطر المضطربة كلها لم تفسد من أمري شيئاً ، ولم تغير من شكلي ولا من نظام حياتي الذي ألفه أهل الدار قليلاً ولا كثيراً . إنما كنت أصبح وأمسى ، وأذهب وأجىء ، وأعمل وأكسل ، وأنشط وأفتر ، كما رأي أهل الدار من قبل ، بل خيراً مما تعودوا أن يروني في الأيام الأخيرة . فقد ذهب عني الذهول ، وفارقت الوجوم ، واستقرت عيناى وهذأتا واستقامتا ، فليستنا تضطربان ولا تقدحان الشرر أو ما يشبه الشرر ، ولا تنظران هذه النظرات التي كانت تخيف مني وتثير في النفوس من حولي شكاً وريباً وإشفاقاً . عدت إلى هدوء غير مألوف ، وانطلق لساني بالحديث ، بل تردد الانسجام على شفتي ، وأخذ الإشراق يتفرق في وجهي من حين إلى حين ، حتى لم يشك أحد في أن هذا الفرح الطارئ قد شفاني مما كنت أجده ، وردت إلى ما كان قد فارقت . من اعتدال المزاج .

ثم نُصبح وإذا الزائرون قد أقبلوا ، وإذا النشاط المبتسم السعيد يملأ الدار جميعاً ، وإذا أنا أشارك من حولي في مظاهر ما يجلبون من فرح وبهجة ، وأنفرد وحدي بلوعة لا تنقضي وحزن لا تخمد ناره .

يا لقوة النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا حد لها . يا لمكر النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار . يا لقدرة النساء على الكيد وبراعتهم في التلوين ونهوضهن بأثقل الأعباء وثباتهن لأفدح الخطوب !

لقد أكبرت نفسي ، بل أكبرت المرأة في نفسي حين رأيته أضطرب في هذا التمثيل وكأنني أضطرب في الحياة الواقعة لا يأخذني أحد !



ولا آخذ نفسي بتصنع أو تكلف أو محاولة ، وإنما أنا أكذب وأنافق وأصطنع الرياء وأخفي ما أخفى وأظهر ما أظهر ، في سهولة ويسر ، كما أنفسي وكما أفتح عيني وأغمضها ، وكما آتي ما تدفعني الغريزة إلى أن آتي به من الحركات ! ومع ذلك فيعرض ما عرض لي من الخطب وبعض ما ألم بي من الهم كان خليقاً أن يحول بيني وبين الحياة فضلاً عن الحياة الهادئة المطمئنة ، فضلاً عن هذه الحياة المضاعفة التي يملؤها الكذب ويجري فيها الرياء كما يجري الماء في الغصن الرطب .

## ١٧

وانتهى النبا إلى خديجة ، كما تنهى هذه الأنبياء إلى الفتيات من بنات الطبقات الوسطى ، ظاهراً خفياً ، وواضحاً غامضاً ، يلقي إليها ويسر عنها ، تُنبأ به وترد عنه ، فتبهج له نفسها وتستحي مع ذلك من أن تتحدث فيه ، ويمتلئ له قلبها غبطة وسروراً ، ويفرض عليها الأدب مع ذلك أن تتكلف الكتابة والحزن كلما ذكر لها . وأن تعرض بوجهها إعرافاً كلما هم أحد أن يشير إليه من قريب أو بعيد ، وأن تقر منه فراراً إذا كان الحديث فيه إليها صريحاً جليلاً . على أن صديق وإن تكلفت من ذلك ما يتكلفه أمثالها مع من كان حولها من أهل الدار ، قد أثرتني بما كانت تؤثرني به في كل شيء . من هذه الصراحة الساذجة الحلوة ! فلم تخف عليّ ما كان يملأ قلبها من فرح وغبطة ، وما كان يغشي نفسها من قلق وإشفاق . وما أكثر ما تحدثت إليّ وما أكثر ما تحدثت

إليها في أمر الخطبة والزواج ، وفيما يحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور التي لا تحصى ولا تستقصى ! وما أكثر ما تحدثنا عن خطيبها المهندس وعما نعرف وما لا نعرف من صفاته وأخلاقه وأسرته وثروته ! وما أكثر ما أغرقنا في الأمل ومضينا مع الخيال ! وما أكثر ما فصلنا الأمور تفصيلاً ، وأطلقنا الوقوف عند الدقائق والصغائر من الأمر ، فتحدثنا عن الثياب التي ستشتري ، وعن الحلوى وعن الأثاث ، وأقمنا القصور وأقمنا إقامتها إتقاناً !

وأنا في هذا كله أجازى صديقي مجازاة يسيرة لا أتكلف فيها ولا أحاول حتى لم تشك لحظة في أنني أشاركها في أمر الخطبة والزواج كما كنت أشاركها قديماً في أمر اللعب ، وكما كنت أشاركها إلى أمس في الدرس والقراءة والاستظهار . بل نحن نتحدث فيما سيكون غداً أو بعد غد حين يتم هذا الأمر ، وحين تستقر خديجة في دارها وتصبح ربة بيت . ونتحدث في الدرس الذي لا بد من أن نمضي فيه ، وفي القراءة التي لا نستطيع أن ننصرف عنها ، ونرتب أمرنا على أنني سأنتقل مع خديجة إلى حيث تكون ، وسأشاركها في حياتها مهما تكن الظروف . وما الذي يمنع من ذلك وما دخلت هذه الدار إلا لها ، وما عملت في هذه الدار إلا معها ، وما استطاعت في يوم من الأيام أن تقبل شركة أو ترضى من أهلها أن يكلفوني بما لا يتصل بها من الأمر ، كنت لها طفلة وكنت لها فتاة ، ويجب أن أكون لها حين تصبح زوجاً وربة بيت .

نعم ! ما أكثر ما تحدثنا في هذا كله وأنفقنا فيه الساعات أثناء النهار حين كان من حولنا يضطربون فيما يضطرب فيه أهل الدار حين



تهدأ لإقامة الأفراح ، وأنفقنا فيه الساعات أثناء الليل حين كان كل شيء من حولنا يسكن هذا السكون العميق الذي تختار به ليالي الريف ! ولكن نفسي في هذه الساعات كلها لم تكن هادئة ولا مطمئنة ، وإنما كانت ثائرة جامحة . وكنت كثيراً ما أكف عن الحديث لأفكر في هذا الشخص الغريب الذي يحتوي قسيتين متناقضتين أشد التناقض : نفساً تبهج وأخرى تبتس ، نفساً تعد وأخرى توعد ، نفساً تمضي في الحديث بما يسر ويضر وأخرى تمضي في تدبير ما يحزن وينفع .

وتنقضي الأيام الأولى ، ويكون اللقاء ويكون التراور ، ويكون الامتحان لخديجة بالنظر والحديث ، ويدنو كل شيء من غايته ، ويستحيل الجو إلى الوضوح والحلاء ، وتنفس أهل الدارين في جو كله سرور وغبطة وأمل ورجاء في غد .

ويدنو أهل الدارين من هذا اليوم الذي تتكشف الأمور فيه عن نفسها ، وتصبح الخطبة فيه أمراً واقعاً يعرفه كل الناس ، وأنا مؤثرة للصمت آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدارين من ألوان النشاط . ولكني أجدني في ساعة من ساعات النهار وقد آذنت الشمس أن تنحدر إلى مغربها ، وانتشر في الجو هذا الحزن الضئيل اليسير الذي ينتشر فيه مع الأصيل فيهدئ من نشاط النفوس ، ويخفف من وجيب القلوب ، ويلقي على الآمال المشرقة بعض الشحوب ، ويجري في الأصوات الفرحة نغمة لاتخلو من كآبة ، أجدني في ساعة من هذه الساعات مقبلة على ربة البيت ، حتى إذا بلغت غرفتها دخلت لا أستاذن ، ثم أغلقت الباب من دوني لا أستاذن ، ثم وقفت واجهة بين يدي سيدتي لا أقول شيئاً ، وإنما تنحدر

الدموع غزيرة على خدي ، وسيدتي تنظر إلي في غير إنكار وفي غير لوم ، كأنها قد فهمت عني ما أردت أن أقول ، وكأنها قد استجابت لدعائي ، فهي تفرق بي وتؤكد لي أنني لن أفارق خديجة ولن يحول بيني وبينها حائل ، وأني سأنتقل معها حين تنتقل ، وسأسافر معها حين تسافر ، وسأقيم معها حين تقيم ، وأني أحسن حظاً منها مني ! فهي مضطرة إلى أن تفارق ابنتها ، أما أنا فلن أفارق سيدتي وصديتي . . .

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه ، ولكنه لا يبلغ مني ولا يؤثر في نفسي ، فما لهذا الحديث أقبلت . وما حاجتي إلى أن أسمع من ربة البيت وقد سمعته ألف مرة مرة مرة من خديجة ! متى استطاعت ربة البيت أن تفرق بيني وبين ابنتها في جد أو لعب ! كلا ! لم أقبل لأسمع هذا الحديث ، بل لم أقبل لأسمع شيئاً ، وإنما أقبلت لأقول شيئاً ، وقد قلت في صوت هادئ تبه هذه الدموع المنحدرة المهمة . وكنت أقدر أنه سيقع من هذه المرأة موقع الصاعقة ، وأن قد دخلت هذه الغرفة في هدوء ولن أخرج منها إلا في عنف واضطراب . ولكني قد أتممت ما أردت أن أقول ، وانتظرت ثم نظرت ، فلم أسمع ولم أر على هذه المرأة اضطراباً ولا دهشاً ولا شيئاً يشبه الاضطراب والدهش . ثم هممت أن أنصرف خجولة مستخفية ، ولكنها وقفتني بالإشارة وتركني لحظة لا تقول لي شيئاً ولا تلتني إلى لحظة ، ثم قالت في صوت عادي مترن : وهل أبيات خديجة من هذا بشيء ؟

قلت وقد أغرقت في البكاء : كلا يا سيدتي ! وما ينبغي لنفس خديجة الطاهرة البرية أن يلقي إليها حديث هذا الإثم . ولولا أنني



أوتر خديجة وأوتر الأسرة كلها لما أنبأته بشيء ، ولا أفضيت إليك  
بسر هذه الأسرة البائسة التي تعيش في بؤسها المظلم في أقصى الريف .  
قالت وقد نهضت إلى متناقلة : لا بأس عليك ! فلن يذاع  
سر أسرتك . ثم ضمتني إليها وقبلتني وهي تقول : لقد أنقذت ابنتي  
من شر عظيم .

## ١٨

قلت : نعم يا سيدتي ، قد أنقذت خديجة من شر عظيم ، ولكنك  
تربين معي أن لا مقام لي في هذه الدار منذ الآن ! فكل شيء يأمرني  
بالتحول عنها . قالت وقد أحست في صوتها أنها مشغولة البال منصرفة  
النفس عما يمكن أن أبسط لها من حديث : وما ذاك ؟ قلت مقتصدة  
منعجلة مضمرة أني إنما أتحدث لأعترض عما ساقى من الأمر : لم أعود  
يا سيدتي أن أخفي على خديجة شيئاً أو أكنم من دونها سرّاً ، وما ينبغي  
بل ما أستطيع أن أبقى معها مستأنسة بعلم ما أعلم طاوية عنها مسعاى عندك  
ومتعلم خديجة من غير شك أن هذا الأمر الذي يلقى فيه قد أهمل وعدل  
عنه ، وسيكون له في نفسها أثر حاد ، ما أشك في ذلك ، ولست آمن  
نفسى حين أحاول ما يجب عليّ من تسليتها وتغريتها أن أبوح لها ببعض  
الحديث . والخير كل الخير في أن أتعجل الرخيل . وما دام الله قد قضى  
على الشقاء فلا بد من الإذعان لما قضى الله . قالت : وأين تريد أن  
تذهبي ؟ قلت : لا أدري ! وإنما يجب أن أذهب أولاً ، فأما إلى أين

فشيء سأسئله بعد ذلك . !

ولم يرتفع ضحى الغد حتى كنت بعيدة عن دار المأمور قريبة منها  
مع ذلك ، ألحظ من كتب ما يكون بين هاتين الأسرتين اللتين لم تتصل  
بينهما الأسباب إلا لتقطع ، ولم تنشأ بينهما المودة إلا لتستحيل إلى عداوة  
أو شيء يشبه العداوة . ولم أجد في ذلك مشقة ولم أتكلف فيه عناء ،  
وإنما تحولت من دار إلى دار ، وقضيت يوماً أو بعض يوم عند هذه  
المرأة التي تحدثت عنها في أول هذه القصة ، عند زنوبة تلك التي عرفتها  
في بيت العمدة وقصصت من حديثها ما قصصت .

أقبلت عليها نحو الظهر ، فألفيتها قائمة تكيل بعض ما تكيل من  
الحب ، وأمامها نسوة يشترين منها : هذه تشتري القمح ، وهذه تشتري  
الذرة ، وهذه تشتري الفول ، هذه تشتري نقداً ، وهذه تشتري نسيئة ،  
وزنوبة تحتمل في هذه وتلك صائحة مسرفة في الحركة ، لا يستقر لسانها  
في فمها ، ولا يستقر وجهها أولاً يستقر ما يختلف عليه من الصور  
والأشكال ، فهي عابسة حيناً ، وباسمة حيناً ، وهي تفعل بعينيها وشفتيها  
وحاجبيها الأفاعيل وتدل بها على ما قد يعجز الكلام عن أن يدل عليه ،  
وهي تسب هذه جادة وتسب هذه مازحة ، وهي تلمح حيناً وتصرح  
حيناً آخر ، وهي تمضي في ذلك والنسوة يسمعن لها راضيات عنها  
معجبات بها ، مشاركات لها في بعض ما تقول وفي بعض ما تأتي من  
الحركات ، وأفراد من شباب المدينة قد اجتمعوا غير بعيد ينظرون  
ويسمعون ، ثم يتبادلون فيما بينهم أحاديث فيها الدعابة والرضا ، وفيها  
اللذة والإعجاب .



فلما رأيته زئوبه لم تذكرني ، ولكنها لم تغل في الترحيب بي ، وإنما نظرت إلى من الرأس إلى القدم ، ثم قالت في صوتها النحيب : ها أنت ذى تقبلين ! لقد بعد العهد بك منذ التقينا في بيت العمدة ، ولكني كنت أنتظرك ، وما شككت في أنك ستأتين إلى هذا البيت وستقومين مني هذا المقام . قلت : فهل أنباك الودع بهذا ؟ قالت : وما يدريك ! لعل الودع قد أتاني من أمرك بما تعلمين وبما لا تعلمين . اصعدى إلى هذه الغرفة من فوقنا فتخفي من حقيقتك واستريحى ، فسأفرغ لك بعد حين ، ولا تتعجلي الطعام إن كنت جائعة فإن وقت الغداء لم يحن بعد . وإن كنت أقدر من أمرك أنك لا تحفلين بالوقت فيما يتصل بالطعام ، فما أرى إلا أنك تأكلين في كل وقت . هذا شأنكن أيها الفتيات تشغلن ببطونكن أكثر مما تشغلن بأى شيء آخر . ومن يدري ! لعلكن تشغلن . . .

فقطعت عليها حديثها بالانصراف عنها والتصعيد في السلم إلى الغرفة التي دلتني عليها ، ولكنها تبغتنى مع ذلك بالسخرية والدعابة ، وأخذت تقول : اهربي ، اهربي ، وجدى في الهرب ، إن أذنك التقيتين البريثتين لا تستطيعان أن تسمعا لما ألقى من حديث . إنك تخافين من احرار الوجه واضطرابه . لن نخدعيني وإن استطعت أن نخدعنى غيرى ، فإنك لتحبين هذا الحديث وتخوضين فيه وفي شرمه مع أترابك من الفتيات ، ولكنكن تصنعن الحشمة وتتكلفن الحياء . على أنها لم تمض في هذا اللغو إذ لم تأتس استماعي لها وانصرافى إليها ففضت فيما كانت فيه من بيع وكيل ومن دعابة بالوجه واللسان .

وفرغت لي بعد ساعة ، فأقبلت على هادئة باسمة ، تسألني عن أختي وأجيبها عن أسئلتها بما أريد ، فتصدق ما تصدق وتكذب ما تكذب ثم قالت : وأنت الآن تريدان العمل ، فأين تحبين أن تعملى ؟ وكيف تريدان أن تعيشى ؟ إن لك من جسمك هذا الجميل ، ووجهك هذا الوضىء ، ومنظرك هذا الذى يسحر الشبان ويغلب عقول الرجال ، ما يكفل لك حياة فيها ثروة وغنى ، وفيها نعيم وترف ، وفيها لذة ومتاع ، وفيها تسلط وسيطرة واستخفاف وعجب بقول الشباب والشيب . قلت مغضبة : دعيني من هذا الحديث ، ولست أريد منك شيئاً ، وما أقبلت أستعينك على شيء ، وإنما أملت بك محبة لك قبل أن أترك هذه المدينة فلانى عنها مرتحلة . قالت وقد أدارت عينها وأسبغت على وجهها شكلاً مضحكاً تملؤه السخرية ويشيع فيه التكذيب والاستهزاء ، وأرسلت من فيها شيئاً منكراً أتبعته بشخير منكر ما أشك في أن الشباب المجتعبين غير بعيد قد سمعوه فتضاحكوا له ، وانتهى إلينا ضحكهم حيث كنا ، فزادها مرحاً ونشاطاً ، وملاأتى خزيّاً واستحياء ، قالت : لا تراعى لاتراعى ، فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب آنفاً ، ولن أكرهك على ما لا تحبين ، ولكنى أعرض عليك ما عندي . فأنت تكرهين هذه البضاعة أو تظهرين كرهها الآن ! فعندى غير هذه البضاعة ، ولكن نتي يا ابنتى أنك راجعة إلى فطالبة منى ما ترفضين الآن . لست الأولى ولن تكونى الأخيرة . . . تريدان عملاً كله جد كهذا الذى كنت فيه عند المأمور ، فلم تركت بيت المأمور ؟ ولكن هذا من أسرارك ، وإن لم يكن الفتيات أمثالك على أمهاتهن من أمثالى سر ، فقد أحب أن



أعلم من أمرك جلبي وخفيه لأوصي بك عن علم . أخرجت سارقة ؟  
 أم خرجت لسوء العشرة ؟ أم خرجت للكذب ؟ أم خرجت لكثرة الصياح ؟  
 أم غضبت سيديك ؟ أم أغضبت سيدتك ؟ أم أغضبت بنت المأمور ؟  
 أم أغضبتهم جميعاً ؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت ؟  
 وهل تعلمين أن في المدينة مأمورين أو يثنين كبيت المأمور ؟ وأنت  
 تخرجين في الوقت الذي يستعد فيه البيت للأفراح والنياال الملاح ،  
 وتترلين عما كان يحق لك أن تطمئني فيه من العطايا والهبات ! فليس من  
 شك في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة . وليس من شك في أن كثيراً  
 من النقد كان سيقع إليك من هذا ومن ذاك ومن هذه ومن تلك ، فكيف  
 تركت هذا كله ؟ أتركه راضية ؟ ولماذا ؟ أم أكرهت على تركه ؟ ولماذا ؟  
 تكلمي ! إني لا أحب الغموض ، ولا أطمئن إلى الأسرار ، ولا خير في  
 التمع والإباء والكتمان ، فما تخفيته اليوم سأظهر عليه غداً وسأظهر عليه  
 قبل أن تفيب الشمس ، ولست بزوجة إن خفيت على أسرار فتاة مثلك  
 لم تبلغ العشرين ، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأخبار  
 الأسر التي تقيم فيها أو تفقد عليها أو ترحل عنها ما أعلم . تحدثي ! كيف  
 خرجت من بيت المأمور أو كيف أخرجت منه ؟

وأمام هذا السيل المنهر من الحديث ، وأمام هذه الأسئلة الملحة  
 وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار ، لم يسمني  
 إلا أن أنهض وأعمد إلى حقيبي فأحملها وأمضي نحو السلم ، ولكنني لم  
 أكد أبلغه حتى رددت عنه رداً ، وحتى كانت حقيبي قد خطفت مني  
 خطفاً ، وحتى كانت زنوبة قد أحاطتني بذراعيها المنكرتين ، وأخذت

تلح عليّ بالضم والتفيل تهدئي وتترضاني ، وأنا لذلك كارهة أشد  
 الكره ، وعلى ذلك ساخطة أشد السخط ، ولو استجبت لنفسي لصحت  
 مستجدة طالبة الغوث ، فقد أخذت أمفت نفسي وألجمها ، وألجم هذه  
 اللحظة التي خطر لي فيها أن آوي إلى دار هذه المرأة ريثما أمضي أمري  
 بعض الشيء وأدير لي عملاً أمضي فيه .

ولكن زنوبة ملحة عليّ بالرفق والملاطفة ، وقد خفت صوتها وعذب  
 حديثها ، وأخذت تتحدث إليّ بأمور ليس بينها وبين ما كنا فيه صلة ،  
 كأنها أعرضت عن كل ما من شأنه أن يسوءني أو يروغني أو يقلقني عن هذه  
 الدار التي اقتنعت زنوبة بأن لا بد من أن يطول فيها مقامي أياً ما أو أسامع .  
 ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتاً غير قليل في حديث هادئ فيه الجدل  
 وفيه المزل ، وإذا أنا آتس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحسن من  
 عطفها ، وأنظر فإذا حياتنا قد مضت في هذه الساعات بسيرة قد زال  
 منها التكلف ، وإذا نحن قد تغدينا معاً ، وإذا كل واحدة منا قد أخذت  
 تتحدث إلى صاحبها في شيء من السذاجة والثقة غريب ، وإذا نحن  
 نستحضر آلامنا وأحزاننا ، وإذا كل واحدة منا تستكشف في صاحبها  
 من وراء هذه الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس صورة أخرى خفية من صور  
 اليأس وتمثالا مستتراً من تماثيل الشقاء ، وإذا كل واحدة منا ترقى  
 لصاحبها أو تتخذ الرثاء مظهرًا من مظاهر الرثاء لنفسها ، وإذا نحن  
 نشترك في البكاء ونتمعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين في الضحك  
 ونستبق إليه . ولم يكده ينصرم النهار ويقبل الليل حتى كانت الألفة بيتا  
 قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذي يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن



احتفظ بشيء من الاحتياط . . فلم أظهر زتوبة على سرى ، ولكنى  
أنبأها بأن أختي قد قصت في الغرب ، وزعمت لها أنى إنما خرجت من  
بيت المأمور في إثر مغاضبة كانت بينى وبين الخدم ، ثم لم أظفر بما  
كنت أرانى أهلاً له من الإنصاف . وقد سمعت منى ما أقول وهى إلى  
التكذيب أقرب منها إلى التصديق ، ولكنها تجنبت الجدال والإلحاح فيه ،  
وأظهرت الرثاء لى والمطف على ، ووعدتني بأنها ستجد لى عملاً شريفاً  
مريحاً إذا كان القدر ، وألحت على فى أن أقضى الليل معها وقد فعلت ،  
وقد اتفقنا جزماً غير قليل من الليل فى مثل ما اتفقنا فيه النهار . فلما  
أصبحنا غابت عنى ساعة أو نحو ساعة ، ثم عادت لى متلهة مشرقة  
الوجه وهى تقول : لقد وجدت عملاً ما أشك فى أنه سيرضيك . مستعملين  
حيث كانت تعمل أمك قبل أن ترحل عن المدينة فى بيت فلان ،  
أتذكرين اسمه ؟ أتعرفينه ؟ إنه رجل من أصحاب الرأى واليسر ، وقد  
لا تجلدين فى داره مثل ما كنت تجلدين فى دار المأمور من الرف ،  
ولكنك ستجلدين عنده ساعة ويسراً ، ومائة فى الخلق ، وتبسطاً فى  
المعاملة ، فزوجه كريمة النفس ، وبناته صالحات لم يفسدهن الذهاب إلى  
المدارس ولا استقبال المعلمين . فهذا الرجل أمير يضمن بيناته على هذا  
النص ، ويرسل أبنائه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصبروا فيها  
بعد موظفين كباراً كالمأمور والقاضى والمهندس . وإذا أقبل الصيف وعاد  
هؤلاء الشبان من القاهرة امتلأ البيت فرحاً وسروراً ، وأصبحت أيام  
الأسرة كلها أعياداً ، وازداد حظ الخدم من الرغد والسعة ولين العيش .  
وأنا كثيرة الاختلاف إلى هذا البيت منذ استقرت هذه الأسرة فيه منذ

أعوام وأعوام ، وقد ربيت أبنائها وبناتها ، وقد تثبت منهم واحداً  
بعينه هو الآن شاب نجيب سيكون بعد قليل موظفاً كبيراً ، وهو يعرف  
لى هذا الحق ويحببى ويكرمنى ويؤثرنى بالخير والمعروف ، قلت :  
وكيف تبيته ؟

قالت وهى تضحك : أتجهلين هذه العادة ؟ لقد أخذته حين كان  
وليداً فأدخلته من بين ثوبى وبينى ، أدخلته من جيبى وأخرجته من تحت  
ذيلى ، فأصبحت كأتى والدته ، وأصبح لى عليه حتى الأمهات وله على  
حتى الأبناء . مستعملين فى هذا البيت وسترضين ، وسأراك كل يوم  
إذا أصبحت وسأراك إذا أمسيت ، فليس بين هذا البيت وبيننا  
إلا خطوات ، وأنا أعمل فيه ساعات من نهار . وقد تحدثت عنك لى  
ربة البيت فعرفت أملك وأختك وقيلتك راضية مسرورة ،  
فهل بنا فقد تركتها على أن أعود بك إليها بعد لحظات . ولست  
أخفى عليك أنها كرهت بعض الشيء استخدامك بعد أن خرجت  
من بيت المأمور لما بين الأسرتين من مودة ، ولكنها لم تطب نفسها عن  
تركك عرضة لما يتعرض له الفتيات من الشر بعد أن عرفت أملك  
وحدث عشرتها . فهل بنا فقد نتاح لنا أوقات طوال يكثر فيها بيتنا  
الحديث .

ونهضت معها وليس فى نفسى ريب فى أنها قد نصحت لى وأخلصت  
فى النصيح والود ، وفى نفسى بعض الأمل فى أنها ستعنى يوماً ما على  
تحقيق ما أريد .



وأقبلت معها على بيت من بيوت الريف هذه التي يظهر فيها الثراء ،  
ويحسن أهلها سعة العيش ، ولكنهم على ذلك لا يأخذون من ترف  
الحضارة إلا بأيسره وأهونه ، يحفظون بما ألفوا من هذه الحياة الريفية  
التي لا دقة فيها ولا رقة ولا افتتان في إرضاء الذوق ، والتي تكره النظام  
وتتفر عنه ، وترى في الترتيب والتنسيق تكلفاً وجهداً لا خير فيهما ولا  
حاجة إليهما . بيت من هذه البيوت التي لا يكاد يدخلها الداخل حتى  
يحسن أن أهلها ميسورون ولكنهم فلاحون كما يقال ، فالمتاع كثير ولكنه  
مهمل مضطرب لم ينظم ولم ينسق ولم يهيا ، وإنما حمل إلى الدار ثم استقر  
فيها كما استطاع أن يستقر .

والفرق فيها ملفى أو كالملفى بين حجرات الاستقبال للسيدات وحجرات  
الاستقبال للسادة ، بل بين حجرات الاستقبال وحجرات الطعام ،  
إنما يستقبل أهل الدار حيث توجد المقاعد والكراسي ، ويأكل أهل  
الدار حيث يتفق لهم أن يأكلوا ، إلا أن بطرقهم طارق أو يلهم بهم ضيف  
فيكون الطعام حيث يكون الاستقبال ، ثم يكون نوم الطارق أو الضيف  
حيث يكون الطعام والاستقبال أيضاً .

في البيت مقاعد وكراسي ، ولكن أهل الدار يؤثرون الجلوس على  
هذه الحصر والأبسطه قد ألفت على الأرض إلقاء . فإذا طرق الطارق  
أو أقبل الضيف عرفت الكراسي والمقاعد أن لها في البيت منفعة وعملاً .

والفرق ملفى أو كالملفى بين من في الدار من الناس وما في الدار من  
الحيوان على اختلافه ، فالدجاج مطلق يمضي حيث يشاء ويستقر هنا  
ثم يستقر هناك حاملاً معه أفذاره وآثاره ، ولا يحصى منه إلا حجرة  
أو حجرتان ولا تحميان إلا في مشقة وتكلف للجهد . وقد لا يكره أهل  
الدار إذا اشتد القيظ أن ينفقوا مساءهم تحت السماء قريباً من البقرة  
أو الخاموسة أو ما إليهما ، يطلبون التسم حيث يجلبونه ، لا يتكلفون  
في ذلك ولا يتصنعون ، ولا يجدون في مخالطة الحيوان حرجاً ولا أذى .  
هي الحياة السهلة البسيطة الغنية همت أن تتحضر وأن تترف ، فأخذت  
من الحضارة والترف بحظ ، ثم لم تستطع أن تتقدم فاكضت بما أخذت ،  
ووقفت عند حد من الحدود لا تعدوه .

ولم أكد ألقى ربة البيت ومن حولها بناتها وخادماتها يعملن وتعمل  
معهن ، يتحدثن وتشاركهن في الحديث ، حتى أحسست أنني  
سأجد في هذه الدار راحة وتعباً ، وسألقى فيها تعباً وبؤساً . وقد صدق  
حسبي ، فزعمت في هذه الدار وشقيت : نعمت بهذه السذاجة التي  
ردتني إلى شيء يشبه حيائي في أقصى الريف ، وخلطتني بأهل الدار  
كأنني واحدة منهم ، وألغت ما بين السادة والخدم من الفروق أو كادت  
تلغيه . ولكن أي حياة يموت فيها العقل أو يأخذ شيء كالموت !  
لم آسف على ما فقدت من الترف ، ولعل لم آسف على ما فقدت من  
صحة خديجة ، فقد استيأست من صحتها واتخذتها - سواء أردت  
أم لم أرد - لنفسى خصماً ، حاربتها وإن زعمت أنني كنت أدافع عنها ،  
وظلمتها وإن زعمت أنني أنقذتها ، وانتصرت عليها وإن زعمت أنني



لم آسف لما فاتني من صحبتها فلم يكن من ذلك بدء ! ولكن أي آسف وأي  
حزن وأي لوعة وحسرة ، وأي ندم يذيب القلب ويملا النفس كآبة  
ويأساً هذا الذي كنت أجده إذا أصبحت وأمسيت وقضيت الليل والنهار  
بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه  
للقلب !!

أين القراءة مع خديجة ، وأين القراءة منفردة ؟ أين هذه الكتب  
الحرية وهذه الكتب الفرنسية التي كنت أنفق معها أكثر النهار وشطراً  
من الليل قارئة أو متحدثة عما قرأت أو متمنية لاستئناف القراءة ؟ لقد  
تركت هذا كله في بيت المأمور ، وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله  
أحد ، إلا رب البيت ، فإنه يقرأ إذا أصبح ، ويقرأ إذا أمسى ، وأنا  
أسمع في الصباح والمساء ، وأكاد أحفظ عنه ما يقرأ . وما يعني مما  
يقرأ ! إنما هي أوراده وأدعيته ، ودلائل الخيرات . وأين أنا من هذا ،  
وأين هذا مني !!

ولقد خرجت من بيت المأمور لم أستصحب كتاباً ، وما كان  
لي أن أستصحب كتاباً ، وإنما كانت كلها كتب الخديجة . ولقد  
سالت نفسي ألف مرة مرة : أين يمكن أن أظفر بهذا الكتاب ؟  
فليس في هذه المدينة من مدن الريف كتب تباع إلا هذه التي يعرضها  
الطوافين في أيام السوق أو في يوم الخميس من كل أسبوع ، يعرضونها  
في السوق ويمرون بها على الدور ، وليس لي فيها أرب ولا منفعة ،  
إنما هي قصص لا تعجيني ولا تروقي وسحر لا أحسنه ، وصلوات  
دينية لا أعرف منها قليلاً ولا كثيراً .

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والجلد الأنيق ، هذه  
التي تأتي من القاهرة والتي كنت أجده اللذة والمتاع حين آخذها في يدي  
أو حين أنظر إليها ؟ أحيل بيني وبينها آخر الدهر ؟ أقضي على  
أن أرد كما كنت فلاحاً من بنات الريف تنفق نهارها في هذا العمل  
الآلي الذي لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها من النباتات والحيوان ؟  
كلا ... !

هؤلاء فتيان الأسرة قد أقبلوا من القاهرة ، وقد رأيتهم يفرغون  
حقائبهم . فما أكثر ما رأيتهم يستخرجون منها من الكتب ذات الأحجام  
المختلفة المتباينة ، منها الضخم ومنها النحيف ، منها متن الطبع ومنها  
ما أهل طبعه إهمالاً ، منها ما جلد في عناية وما ترك على حاله التي خرج  
بها من المطبعة ! ولكن أين مني هذه الكتب ؟ وكيف السيل إلى النظر  
فيها ؟ بل كيف السيل إلى الوصول إليها ؟ هنا حدثني نفسي بما  
لم تحدثني به قط ، فأنكرت حديثها بعض الشيء ، ولكني لم ألبث  
أن عرفتته وقبلته واطمأنت إليه ثم صممت عليه نصيباً . وأي بأس في  
أن أختلس الكتاب اختلاساً فأنظر فيه وقتاً طويلاً أو قصيراً ، ثم أردته  
إلى مكانه لم يمسه بأس ولم يصبه مكروه ؟ أسرقه هذه ؟ أإثم هذا الذي  
أنا مقدمة عليه ، إن وجدت إلى الإقدام عليه سبيلاً ؟ والله يشهد  
ما سرقته ولا فكرت في السرقة ، وما اختلست ولا فكرت في الاختلاس  
إلا هذه المرة . والله يشهد ما لمت نفسي على ذلك ولا أشققت عليها  
من تورط في الإثم أو تعرض للعقاب ، وإنما قضيت أسابيع غربة  
فيها مهارة لم أكن أعرف لنفسي منها حظاً ، وفيها خوف وإشفاق ،



وفيها بين ذلك لذات لن أنساها . فكم خدعت أهل الدار ، وكم تغفلهم ، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأخفيت بيني وبين ثوبي ، ثم انحزت به إلى حيث اتخذت لنفسى مأماً لا أخشى أن يعثر على فيه ، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقى عليه نظرات طولاً أو قصاراً تغريبي به أو تصرفني عنه ، وأنا أجد لهذه المخادعة ولهذا الخوف وهذه القراءة لذة غيرت حياتي تغييراً وكادت تصرفني عن هذه الخواطر التي كانت تصاحب نفسي وتملأ قلبي وترسم أمام عيني بيت المأمور وبيت المهندس صورة خديجة وصورة هذا الشاب . نعم ! كادت هذه الحياة الجديدة تصرفني عن هذا كله ، لولا حديث سمعته وأنا أطوف بألوان الطعام وأقداح الماء على سادتي في ليلة من هذه الليالي : سمعت حديثاً عن المأمور اضطربت له نفسي واضطراباً ، ولولا أني أنفقت جهداً عنيفاً لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يدي ما كنت أحمله من آنية ، فقد نقل المأمور من المدينة إلى مدينة أخرى في أقصى الأرض مما يلي البحر ، وكان هو الذي طلب هذا النقل وسمى فيه وتوصل إليه بفلان وفلان . والناس يهيمون بأنه إنما فعل ذلك ليفر بابتته من جوار المهندس الذي كان قد خطبها ثم قطعت الخطبة . والناس يختلفون ، فمنهم من يرى أن المهندس هو الذي قطع الخطبة لأشياء بدت له ، ومنهم من يزعم أن المأمور هو الذي رفض الخطبة لما تبين من سوء سيرة هذا الشاب .

سمعت هذا واضطربت له ، وكظمت عواظي وأكروحت نفسي على الترام الآمن والمهدوء ما اضطرتت إلى الخدمة ، فلما أتيت لي العزلة

أرسلت نفسي على سجيها فقضيت ليلة ساهرة حائرة مفكرة محزونة . ولكن الصباح لم يسفر حتى أسفر معه للنفس أمل لا يخلو من حزن ولكنه أمل على كل حال ، من أجله أفسدت الأمر على خديجة ، ومن أجله خرجت من بيت المأمور ، ومن أجله نفيت نفسي في هذه الدار . فقد خلا الجولي في المدينة ، وأصبح من الممكن أن تتصل الأسباب بيني وبين هذا المهندس الشاب ، وأصبح من الممكن بل أصبح مما لا بد منه أن يكون الصراع بينه وبينى ، فليعلمن بعد وقت قصير أو طويل أذهب دم هنأدى هدراً أم لا يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظفر له بالنار ويشق نفسه بالانتقام ؟ ...

## ٢٠

وقضيت بعد ذلك أسابيع حائرة أشد الحيرة ، مرتبكة أعظم الارتباك ، تضطرب الخواطر في نفسي وتختلف وتردحم دون أن أقدر على تنظيمها أو أجد لي منفذاً منها إلى هذا الخاطر الذي كنت أطلبه وألح في طلبه وأريد أن أطمئن إليه . فلم يكن بد من أن أتصل بخدمة هذا المهندس الشاب ، ولم تكن السيل إلى ذلك ميسرة ، فأنا عاملة في هذه الدار لا أجد من أهلها ما يزعجني عنها أو ما يضطرنني إلى فراقها ، وسكينة عاملة عند المهندس ، لا تجد منه ما يؤذيها ، ولا يجد منها ما يصرفه عنها أو يزهدده فيها .

وكنت أجهد نفسي أثناء هذه الأسابيع لإجهاداً شديداً متصلاً



أنفس مخرجاً لي من هذه الدار ومخرجاً لسكينة من تلك ، وأريد مع ذلك أن أجنب الشر والإساءة ما وجدت إلى اجتنابها سبيلاً . وكثيراً ما سمعت سادتي يتحدثون أثناء الغداء أو أثناء العشاء عن مبادلة يسعى فيها أكبر أبناء الدار وكان موظفاً في إقليم بعيد ، وكان يريد ويريد أهله أن ينتقل إلى المدينة التي نحن فيها ليعيش بين أهله سعيداً موفوراً . فكان يسعى في أن يبادل موظفاً في المدينة ليأخذ كل منهما مكان صاحبه . وكان التراضي قد تم بينهما بعد أخذ ورد وبعد سعي وإلحاح ، وكان السعي متصلاً في أن يرضى الحكومة عن هذه المبادلة ، وكان الأمل يدنو حيناً من هذه الأسرة ويعد حيناً آخر ، وكان رب البيت وريته يحرصان على تحقيق هذا الأمل أشد الحرص ويكثران الحديث فيه ، وكانا يتصوران أنهما وقد عاد إليهما بعد طول الغربة في أقصى الصعيد ، وكانا يبيتان له في أحاديثهما غرفته وينظمان فيها الأثاث ويذكران ما يجب أن يشتري من المتاع ، ويتحدثان بما سيتغير من نظام الدار إذا أقبل هذا الشاب الذي تعلم في المدارس وتعود حياة الترف والنعم ، والذي يتكلم الفرنسية ويتأنق في اللباس ، ولا يأكل كما يأكل أهل الدار جالساً على الأرض إلى هذه المائدة المنخفضة ، عليها هذه الصينية النحاسية البيضاء في الأيام العادية ، وعليها تلك الصينية الصفراء التي لم تكن توضع حتى يسرع إليها الصبيان والشبان يتكلفون قراءة ما كان عليها من بعض النقوش قبل أن يرص الخبز عليها رصاً فيخفي هذه النقوش إخفاء .

نعم ! ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل الدار ، وإنما كان

بصطع هذه الأدوات التي بصطنعها المرفون . وكان سيد البيت وسيدته يتحدثان بذلك منكرين له بأطراف السهائم معجيين به أشد الإعجاب في قلوبهما . وكان الشبان من أبنائهما يسمعون أحاديثهما هذه ويعرفون مخطئهما الظاهر وإعجابهما الخفي ، فيسمون صامتين ما أقام أبوهما ، فإذا انصرف لشأنه امتلأت أفواههم بالضحك وانطلقت ألسنتهم بالدعابة ، وأمههم تسمع لهم وتنظر إليهم ، منكرة عليهم بطرف اللسان معجبة بهم في أعماق القلب . وكنت أنا أسمع الأحاديث كلها فألحزها وأطيل التفكير فيها . فهل من سبيل إلى أن تم بين سكونية وبيبي مبادلة كهذه التي يراد أن تم بين ابن هذه الدار المنى في أقصى الصعيد وهذا الموظف القبطي المنى في أدنى الأرض ؟ !

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المبادلة ؟ بل كيف السبيل إلى عرضها على سكونية أو التحدث إليها فيها ؟ بل كيف السبيل إلى تعليل هذه المبادلة لسكونية ؟ وما الذي يزعجها عن منزلها هذا الذي نظمته إليه وتسود فيه لا تكاد تدع لأحد ولا تكاد تلقى من أحد ما يلقاه الخدم من السادة ؟ ما الذي يزعجها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التي لاحظ لها من ترف والتي ليس فيها هذا المهندس الشاب ؟ وهب سكونية حنت واطمأنت إلى مثل هذا العرض السخيف ، فكيف يكون تعليل ذلك لسيدتها ؟ وكيف يكون تعليل ذلك لسادتي ؟ كلا ! هذه أحلام ليس إليها من سبيل . ومهما أجتهد ومهما أحاول فإن الشر لا ينال إلا بالشر ، والإثم لا يدرك إلا بالإثم ، ولن أبلغ هذه الغاية التي أسمر إليها حتى أقنم في سبيلها غمرات



وأقرب في سبيلها آثاماً .

لا بد إذن من بعض الشر ، ولا بد من أن أمكر حتى أقصى عن هذه الدار ، ومن أن أكيد حتى تفصى سكينه عن بيت المهندس الشاب . وما أسهل المكر حين تنهبا له النفس ! وما أيسر الكيد حين يطمئن إليه الضمير ! ومنى عجزت المرأة عن أن تبلغ من المكر والكيد ما تريد ؟ لن أجد في تحقيق ما أريد جهداً ولا مشقة إذا رضيت نفسي ما لا بد من أن ترضاه من الشر ، واستباححت ما لم تكن تستيحه من الإساءة والإيذاء .

فأما سكينه فأمرها ميسور . وإنما هي زيارة للبستاني وإغراء له ببعض المال ، واتفاق معه على أن يفسد الأمر على هذه الفتاة ما وسعه ذلك ، حتى إذا انتهى منه إلى ما أحب وأخرجت سكينه من الدار سعى إلى زنوبة من قبل سيده يلتصق خادماً ، ويومئذ ...

وأما مخرجي أنا من هذه الدار التي أعمل فيها فليس أيسر منه ولا أهون . لقد دخلت الدار ولم تكن في حاجة إلى ، وإنما قبلني أهلها رفقا بي وعظفاً على وإحساناً إلى ورعاية لعهد أمي . فأنا عندهم ضيف ، أستطيع أن أرحل متى شئت ، وأستطيع أن أقيم ما أحببت . على أن ظروف الحياة لم تضطرنني إلى أن أتكلف الاستئذان في الرحيل والتماس العلل والمعاذير ، وإنما قضت بأن أخرج من هذه الدار إخراجاً وأنيذ منها نبذاً . ولاني لأذكر قصة ذلك الآن فأبسم لها ابتساماً ملؤه الحنان والحب . وكثيراً ما ذكرت هذه القصة قبل اليوم فامتلاً قلبي حباً لهؤلاء الناس وحناناً إلى هذه السذاجة التي كانوا يعيشون فيها والتي

كانت تصور لهم أمورهم كلها في صورة الجسد الذي لا يشبهه جد ، والتي لا يتحدث بها الناس في هذه الأيام إلا ضحكوا منها ساخرين إن كانوا قساة القلوب ، وابتسموا لها عاطفين إن كانوا يقدرون الذكرى ويحبون الحياة التي لا تكلف فيها ولا رياء .. !

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التي أقبلوا بها من القاهرة ، يقرءون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرفهم عنها شيء . وكثيراً ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيعطون ، وكثيراً ما كان إبطاؤهم يغيظ أباهم ويعملوه بهم إعجاباً ولم حباً . وكان أهل الدار جميعاً ، وربها أولهم ، مقتنعين أشد الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على هذه الكتب حباً للعلم وإثارة للدرس وجداً في التحصيل ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفهم العمل طول العام الدراسي في القاهرة ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم لذة الرياضة والاستمتاع بشيء من النعيم . وإنما هي الكتب إذا أصبحوا ، وهي الكتب إذا أمسوا ، وهي الكتب إذا آن لهم أن يقبلوا بعد الغداء . ما أشد فتنة العلم لهؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشد الحب ويأخذون منه بأعظم الحظ ، ويريدون أن ينبغوا فيه وأن يظفروا بالشهادات في غير إبطاء ، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاضون المرتبات في آخر الشهر ويؤدونها كلها أو بعضها إلى أهلهم !

وكان أهل الدار يجلسون في هذه الأحاديث لذة ، ويطلقون خيالهم فيها إطلاقاً . وكانت سيده الدار تمثل هذا كله وتتوسل في تحقيقه وتعجيله إلى الله بهذا الدعاء الساذج اليسير الذي تجرى به



ألسنة أمثالها من أهل المدن والقرى ، وتكثر في الوعد بالنور المختلفة لهذا الشيخ وذلك الولي .

وكان رب الدار لا يكف عن التحدث بنشاط أبنائه وعكوفهم على الكتب أكثر النهار وشطراً من الليل ، حتى لقد كان يفيظ أصحابه ويملاً قلوبهم حسداً ، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملاً قلبها خوفاً من الحسد والحاسدين . وكان هذا الرجل الطبيب الكريم يجد لذة في أن يختلس الوقت من حين إلى حين ويشير الفرصة التي يغيب فيها أبنائه عن هذه الغرفة التي رصت فيها الكتب رصاً فينسل إلى الغرفة انسلالاً كأنه اللص ، ويقف أمام هذه المائدة أو هذه الموائد التي نظمت عليها الكتب تنظيماً ، ويلقى على هذه الأسفار نظرات ملؤها الإكبار والإجلال ، وقد يمد يده في تحفظ واحتياط إلى هذه الكتب فيمسحها مساً رقيقاً ويمسحها مسحاً يسيراً ، كأنه يتبرك بها ويلتمس عندها ما يلتمسه عند الأولياء والقديسين إذا لقيهم أحياء أو زار قبورهم أمواتاً .

وقد يدفعه حب هذه الكتب وكلفه بها وحاجته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شيء من الجراءة ، فيأخذ كتاباً منها وينظر فيه ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم ، أو ليقرأ فيه سطرًا أو أسطرًا يفهمها أو لا يفهمها ، وهو يؤثر فيما بينه وبين نفسه ألا يفهمها ، فذلك أدنى إلى الإعجاب وأشد إمعاناً فيما ينبغي للعلم من العناية والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء ، وهو أدنى إلى ما ينبغي من الإعجاب بهؤلاء الشبان الناشئين الذين يعرفون ويفهمون ويسمعون ما لا يعرف

آباؤهم ولا يفهمون ولا يسمعون . وكثيراً ما كان يظهر هذا الرجل ميلاً فيه كثير من الحياء والتردد إلى أن يحدثه أبنائه ببعض ما يقرءون ويعطونه شيئاً من هذه الكنوز التي يملأون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، ولكنه كان شقياً دائماً لا يكاد يلمح لأبنائه ببعض ذلك حتى يجد منهم نفوراً وازوراراً ، فيضطر إلى الصمت والرضا بما هو فيه من جهل وحرمان . وكثيراً ما كان يتحدث إلى زوجه ببخل العلماء وضيقهم بالعلم وإشارتهم أنفسهم بلذاته وثمراته ، يتحدث بذلك مثلاً محزوناً أو ناثراً مغضباً ، فتعزبه زوجه وتهده وتهزعه له صادقة أو متكلفة أن العلماء إنما يخلون بالعلم على غير أهله إكراماً للعلم وإشفاقاً على الجهلاء من أن يشق عليهم ما يسمعون ، فيقبل منها ذلك أو يجادلها فيه .

وكذلك كان هؤلاء الشبان وكتبهم بمكان الإعجاب والتعديس من هذه الأسرة الساذجة . ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد الاضطراب ، وفسد فيها أو كاد يفسد كل شيء ، وقضى أهلها يوماً منغصاً كله شر وبأس ، وأمل خائب وظن كاذب . وكنت أنا مصدر هذا البلاء ، فكفرت بخروجي من الدار عما جنيت من سيئة ، وما كان أسعدني بهذا الخروج ! ..

ولم أكن أقل من صاحب البيت كلفاً بالانسلاخ إلى غرفة الكتب والنظر إليها والقراءة فيها ، بل كنت كما قلعت أتجاوز حظ صاحب البيت من هذا كله فأختلس الكتب اختلاصاً وأخفيها بيني وبين ثوبي ، وأخلو إليها في حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول ، ولكنها كانت تمتلئ دائماً باللذة والمتاع . وكنت قد لاحظت كتاباً دميم المنظر قبيح الشكل ، ردىء الطبع والورق ، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفاً متصلاً ،



يستبقون إليه استباقاً ويتنافسون فيه تنافساً ويشدد اختصاصهم فيه ،  
ثم ينهون إلى أن يتفقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد منهم وقت  
معلوم . فدفعتم إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتبع ما يخفيه شكله  
الدميم وطبعه الرديء وورقه الحقيق وجلده المبتذل البالي ، من هذا  
السحر الذي خلط هؤلاء الشباب ودفعهم دفعاً إلى الهالك عليه والتنافس  
فيه . وكثيراً ما التمت هذا الكتاب فلم أجده قريب المثل بين هذه  
الكتب المخصوصة المعروضة ، فتبينت أن هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون  
من النظر فيه حتى يخفوه إخفاء . فلم يزدني ذلك إلا كلفاً به وتبعاً له  
والحاحاً في البحث عنه . وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعوون إلى  
الغداء ، وأن الغرفة مستخلو لى ساعات من نهار ، وأنى سأستطيع أن  
أبحث عن هذا الكتاب ، وقد أقسمت لأجده ولا أنظرون فيه ولا قضين  
معه أطول ما أستطيع أن أقضى معه من الوقت .

وقد انصرف الشبان إلى وبعثهم ، وتخففت من أثقال ما كان على من  
عمل ، فانسملت مسرعة رشيقة سريعة النشاط إلى الغرفة ، ومضيت في  
البحث غير قليل ، وإذا أنا أظفر بما كنت أبتغي . فيا للبهجة  
ويا للغبطة ، وبالسعادة وبالرضا ! هذا الكتاب بين يدي دميم  
الصورة قبيح الشكل حقير الورق رديء الطبع ، ولكن اسمه ألف  
ليلة وليلة . وأنا أقرأ فيه وأنا أمضي في القراءة ، وأنا أنسى نفسي وأنسى  
مكاني . ولكن ماذا أسمع وماذا أرى ؟ هذا باب الغرفة يفتح في  
غير احتياط ، وهذا رب الدار يدخل ! فقد كان مثلي ينتظر أن تخلو  
له الغرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإكبار ، ولينظر إليها نظرة  
التقديس ، ولحمد إليها يده ملاطفاً مداعباً ، ثم ليقرأ من أسماها وسطورها

ما يبهر به أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار . ولكنه يراني أنظر في كتاب ،  
وفي كتاب لم يتعود أن يراه ! فهو يسألني ماذا أصنع ، وما أنا وهذه  
الكتب ؟ وأحاول أنا أن أخفي الكتاب الذي كنت أنظر فيه ، ولكنه قد  
أسرع فأخذه من يدي ، ثم زجرني زجراً عنيفاً وطردي من الغرفة طرداً .  
على أنه لم يطل المقام في هذه الغرفة وإنما خرج منها بعد قليل  
ثائراً ساخطاً ، وأقبل على زوجه وفي يده هذا الكتاب فالتقاء في وجهها  
إلقاء ، واندفع في غضب لا حد له وفي شتم لا ينهي  
ساخطاً على زوجه المسكين وعلى أبنائه البائسين ، صاباً عليها نذراً  
متصلة بالكوارث والأحداث ، معلناً إليها في غيظ عنيف مرة وفي حزن  
أليم مرة أخرى ، خيبة أمله في هؤلاء الأبناء الذين كان يظنهم محبين  
للعلم مؤثرين له مهالكين عليه ، فإذا هم أصحاب عبث وخطو ومجون ،  
وإذا هم ينفقون وقتهم في قراءة هذا الهذيان . ومن يدري ! لعلمهم ينفقون  
وقتهم في هذا أثناء إقامتهم في القاهرة على حين يظن هو أنهم يجدون  
ويعملون ويحصلون العلم . وهو إذن إنما يجد ويكد وينفق حياته وماله  
بمضي أبنائه في هذا السخف وفي هذا اللهو الآثم القبيح . وهم لا يضيعون  
وقتهم وجهدهم وجد أبيهم وكده وماله وأمله فحسب ، ولكنهم يخربون بيت  
أبيهم بأيديهم كأنهم يجهلون أن هذا الكتاب لم يدخل بيتاً إلا خربه تخريباً .  
ثم يعود الرجل إلى غرفة الكتب فيقلب كل ما فيها تقليباً ، وما  
يزال يبحث حتى يظفر بأجزاء الكتاب كلها ، ثم يعود بها متصبراً  
ساخطاً معاً ، ثم يمزقها تمزيقاً ، ولا يطمئن حتى يشعل فيها النار !  
وقد نفص يوم الأسرة كله فلم يبق الرجل ولا أهل الدار فيه طعاماً .  
وعاد الفتيان آخر النهار ، فلا تسبل عما سمعوا ولا عما رأوا ، ولا



عن صمتهم حين صمتوا ولا عن قولهم حين قالوا . ولكن النتيجة الأولى والأخيرة فيما أظن لهذا كله هي أني طردت من الدار طرداً . ورجعت إلى بيت زنوبة وإلى غرفتها ، فقصيت فيها أساييع أنتظر ما يجري به القضاء ، وما تنهى إليه حيلة البستاني الذي ضرعف له الأجر .

## ٢١

« ستعملين إذا كان الغد يا آمنة ، وستعملين عملاً يرضيك كما لم يرضك عمل من قبله قط . لا تذكرى بيت المأمور ، ولا تذكرى بيت فلان هذا الذي دفعتك الحماقة فيه إلى هذا الذنب العظيم . ستعملين عملاً مريحاً فيه مال كثير ، ونعيم كثير ، ومتاع كثير . ستعملين . . . ستعملين وستسعين . ليتنى كنت مكانك ، ليت سى تعود إلى حيث أتت من العمر . ستعملين وستسعين . . . ! »

قالت ذلك وهي مضطربة أشد الاضطراب ، مبهجة أشد الابتهاج ، يدفعها الفرح والمرح إلى أن تأتي حركات مختلطة فيها الرقص والقفز ، وفيها الجدل والهزل ، وفيها الدعابة التي ليس بعدها دعابة والهجون الذي ليس بعده هجون . حركات على الوجه ، وحركات باليدين ، وحركات في الجسم كله مجتمعاً وفي أعضائه متفرقة . حركات هي إلى الجنون والاختلاط أدنى منها إلى الفرح المعتدل الذي يصدر عن نفس مرحة وعقل متزن . ولم تكتف زنوبة باضطرابها هي ، وإنما انقضت على انقضاضاً ، فقبلتني وأهضتني وراقصتني ودارت في حول الغرفة دوراناً متصلاً سريعاً حتى انتهت بي وبنفسها إلى السقوط ، كل ذلك وهي مندفعة في حركاتها وأحاديثها ، لا تمكنني من أن أقول كلمة أو أنطق

بحرف أو آتى من الحركات غير ما تريد . قد استحالتي إلى جنينة وأصبحت الغرفة ميداناً لا يضطربها المختلط الذي لم يقف ولم يهدأ إلا حين أسقطها الدوار وأسقطني معها على الأرض وحين أفاقت منه بعد قليل . . . هنالك استطاعت أن تتكلم كلام العاقلة ، واستطعت أن أسمع لها وأن أفهم عنها ، فعلمت أن المهندس في حاجة إلى خادم ، وأنه قد أرسل يتقدم إليها في أن تلتبس له هذه الخادم ، وأنه يمنحها على ذلك أجراً يختلف باختلاف الخادم التي تقودها إليه مع الصباح إذا كان الغد . وهي مبهجة لي وهي مبهجة لنفسها ، فما أكثر ما قدمت لهذا الشاب من خدم ! وما أكثر ما تفاضت منه أجر ما قدمت ! ولكنها لم تقدم إليه يوماً من الأيام فتاة مثلي ، لها مثل ما لي من جمال الوجه ، واعتدال القدر ، ورشاحة العقل ، ومهارة اليد ، والعلم بمحاجات الشبان المترفين . سيكون أجرها مضاعفاً . أما أنا فأسعد السعادة كلها في هذا البيت الأنيق الجميل ، وفي خدمة هذا الشاب المترف الغني الوحيد . لن تأمرني سيدة الدار ، ولن ينازعني خادم الدار . سأكون وحدي صاحبة السلطان المطلق على بيت هذا الشاب وعلى قلبه إن أحببت ! فقلبي مباح لمن يحسن الوصول إليه والاستيلاء عليه .

قالت ذلك وأرسلت شقيقها المرتفع ، وشخبرها المنكر ، وضحكها العالي ، ثم انقضت على وضعتني إليها ضماً عنيفاً وهي تقول : « إني لأغبطك وأحسدك معاً . أغبطك لأنني أحبك ، وأحسدك لأنني أود لو أكون مكانك وأظفر بالسلطان على ما يحتوي هذا البيت من نعيم . »

وأنا أسمع منها وأبسم لها وأرفق بها ، فلا أنبها بأنني قد دبرت لهذا اليوم تدبيراً ، وأعددت له إعداداً ، واشتريته بالمال ، وانتظرت مقدمه واثقة



بأنه سيقدم ، مطمئنة إلى أنه سيحين . ولم أظهرها على هذا كله ، وأمرى كله في حاجة إلى الحزم وفي حاجة إلى المكر والكيد .

نعم ! لم أنبأها من هذا كله بشيء ، ولم أنبأها حين أصبحنا بأن لم أذق النوم لحظة في هذه الليلة الطويلة التي فرقت بين نفسيين ، وإنما قضيت الليل كله بقطعة ، أفكر في أمس البعيد وأفكر في اليوم ، وأفكر في غد وفيما بعد غد ، على حين كانت تحلم بما باعت وما ستبيع من حب ، وبما أخذت وما ستأخذ من أجر ، وبما ذاقته وما بقي لها أن تذوق من هو ، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها إلى أن يأتي حركات مختلفة تلائمها ، وتدعو لسانها إلى أن ينطق بحمل متقطعة مختلفة توافقها . وكنت أرى ذلك منها وأسمعه ، فأرثي لها وأرثي لنفسى أيضاً : أرثي لها في حياتها هذه الصغيرة الحفيرة التي خلت من كل حس دقيق ، أو شعور عنيف ، أو تفكير عميق . وأرثي لنفسى من حياتي هذه المضطربة التي يملؤها الحس والشعور والتفكير ، وتفعمها الأحداث والخطوب .

نعم ! قضيت الليل كله مؤرقة . وليس من شك في أنه كان طويلاً ، وليس من شك في أنه كان ثقيلاً لو فرغت له ، ولكنني شغلت عن الليل بينات الليل . شغلت عن طول الليل وثقله بصورتك أيتها الأخت العزيزة البائسة هذه التي لم تكده تحس أني خلوت إلى نفسي حتى تراءت لي ، ثم دنت إلى ثم استقرت مني غير بعيد ، ثم أخذت تتحدث إلى نفسي حديثاً أعقله ولا أسمعه ، وأجد له في قلبي وقعاً لاذعاً حلواً معاً . صورتك هذه التي رأيتها كما كنت أراها حين ذهبنا إلى الغرب ، وكما كنت أراها في بيت العمدة قائمة تحت السماء ذاهلة لا تحس شيئاً ولا تلتفت

إلى شيء ، وكما كنت أراها حين كنت أنبهك إلى نفسك وإلى مكاني منك ، وحين كنت أتحدث إليك وأستمع لك ، وحين كنت أواسيك وأعزبك وأجهد في أن أفيض عليك السكينة وأشيع في قلبك الأمن والهدوء . ها أنت ذى تسعين إلى وتجلسين إلى جانبي ، وهذا رأسك قد مال حتى استقر على كتفي ، وهذه يدي تلاطف خدك وتبلاها دموعك المنهجرة الصامتة . وها أنا ذى أخلى بينك وبين البكاء حيناً وأمضى معك فيه ، ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه . وهذه يدي تلاطف شعرك الغزير ملاطفة متصلة حتى يملكك الأمن ويوشك النوم أن يضم عليك ذراعيه . ولكنك تهضين وتذهبين . ثم تعودين لي بعد قليل واجهة ثم مروعة ، وأنا أستقبلك رفيقة بك مهلهلة لك . وهذه الأشباح الحمراء تترأى لنا كما كانت تترأى لنا في بيت العمدة قبل أن نأخذ في هذا السفر الأثيم ، ولكنك لا تكادين ترين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيمى وتهضى إليها ، وتستحيل إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء ! وها أنتن أولاء تطفن بي وتضطربن من حولي وتستبقن إلى أذني تردن أن تلقين فيهما ألوان الحديث . وها أنا ذى مروعة مضجعة ، أرى الجنون وأشفق منه وأهم أن أصبح ، وأذكر مكاني في دارنا تلك في أقصى الريف نحو الغرب أثناء العلة . وها أنا ذى أرى ينبوع الكريه يتفجر منه ذلك الدم الغزير . وها أنا ذى أنهض خائفة موهة ، أريد أن أفر من هذه الغرفة ، ولكن إلى أين ؟ !

نعم ! إلى أين والليل ساكن جائم ؟ وأين تستطيع فتاة مثلي أن تذهب والليل ساكن جائم ؟ لأوقظن هذه المرأة التي تختلف عليها الأحلام وتنعم بلذة النوم في ناحية من نواحي هذه الغرفة . لأوقظنها ولأقضي



معها بقية الليل في الحديث . . . ولكني لا أكاد أسمى إليها حتى تأخذني الأشباح الحمراء من كل مكان ، وحتى تسمى إلى أختي وعلى وجهها ابتسامة شاحبة حزينة مستعطفة ، وهي تلتقي في نفسي هذه الكلمات التي تقع منها مواقع السهام المحرقة : لا توقظيها إنها تخيفنا ، وإن يقطبها تطردنا ، ماذا تخافين منا ؟ لقد طالما ألفتنا وألفناك ، أفنسيتنا إلى هذا الحد ؟ كلا ! كلا ! لم أنسكن ولن أنساكن ، ولن أذودكن عن نفسي ، ولن أوقف هذه المرأة التي تخيفكن . أقمن معي ، أطفئي بي ، تحدثي إلي ، فمن يدري ! لعل أن أكون في يوم من الأيام واحدة منكن ، لعل أن أكتسى هذا الرداء الأحمر القاني الذي تكتسبه والذي يدعوني إليكن ويخيفني منكن . . .

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يحملني إلى الهواء من بعيد فيبلغني نجلا ضيلا ، ولكنه على ذلك يشع في سكون الليل كما يشع الضوء في الجو . . .

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يدنو مني شيئا فشيئا فيملأني أمنا ودعة وهلوعا ، وحزنا معا . إنه يردني إلى اللحظة الحالصة التي تشعر بنفسها وتفكر في نفسها وتذكر ما مضى على علم به وتقدير له ، وتستقبل ما سيأتي في روية وبصيرة واستعداد للاحتفال . . .

نعم ! إن صوتك بملأ أذني ، وإنه يملأ قلبي ، وإنه ليغمر نفسي ، وإنني أفهم عنه ما يريد ، وإنني لأذكر أختي ومصرعها ، وإنني لأعرف من دفعها إلى الموت ، كما أعرف من أذاقها الموت . وإنني لأعلم حق العلم أني سأعيا إذا كان الغد إلى بيت هذا المهندس فقيمة فيه حيث كانت أختي ، فناهضة بما كانت تنهض به أختي

من العمل ، فنتية بعد إلى شيء آخر غير الذي انتهت إليه أختي في ذلك الفضاء العريض . . .

لقد سمعت منك أيها الطائر العزيز ، وفهمت عنك ، وهذا عقلي يثوب إلى ، وهذه قوتي ترد على ، وها أنا ذى أنظر الصبح لأسمى إلى هذا المهندس وإن قلبي لمظلم أشد الإظلام ، وإن وجهي لمبتسم أجمل الابتسام .

## ٢٢

وأقبل سيدي الحديد على " مبشما راضيا يمدق النظر في وجهي تحديقاً طويلا ، ثم يفصل النظر إلى جسمي كله تفصيلا ، كأنه يتمتع متاعاً يريد أن يشتريه . ولو قد استطاع لنهض إلى فاختبرني بيديه اختباراً وتعرفني باللمس ، ولكنه كان فيما يظهر قد احتفظ لنفسه ببقية من حياة ، فاكتمت بهذه النظرات المتصلة الطوال التي تجرد المرأة من ثيابها تجريداً ، والتي كنت ألقاها مضطربة لها أشد الاضطراب ثائرة لها أشد الثورة .

ولكني كنت أتمالك ما وسعني الجهد وضبط النفس ، حتى لا يرى علي اضطراباً ولا ثورة ولا شيئا ينكره . وهو يسألني عن اسمي ، وعن أهلي ، وعن أمري كله ، فألفق له من ذلك ما ألق ، وأزين له من ذلك ما أزين . وهو يسمع مني مصدقاً لي أو غير حافل بما يسمع ، إنما يريد أن يعرف صوتي ووقع حديثي . ثم هو يأمرني أن أقبل وأن أدبر ، وأن أدنو وأن أبعد ، وأن أنحرف إلى يمين وأن أنحرف إلى شمال ، وأنا أستجيب لكل ما يدعوني إليه . وقد هدأ اضطرابي وسكنت نفسي ، وعادوني صوابي ، وأنا أتحدث إلى نفسي بأن هذا الفتى يعرف حقاً كيف يكون شراء الرقيق . . .



ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أني سألقاه قائمة باسمة . أقبل إلى في ظلمة الليل يسمى كأنه الحية أو كأنه اللص . ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح ، حتى أخذته شيء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض جعل يأخذ لونه الطبيعي قليلاً قليلاً : ماذا ؟ ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أتعلمين أين أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثيه ، وما كان ينبغي لي أن أنام قبل أن ينام سيدي ، فما يدريني ! لعله يحتاج إلى شيء .

قال وقد عاد إليه ثباته وهلهه نفسه ، واسترد صوته شيئاً من قبحته المألوفة ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهر منتظرة لمقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت أن أرى من سبقك في خدمتي . وكنت أقدر أني سأجد في إيقاظك بعض الجهد ، فليست أدري ما بال نوم الخدم بثقل حتى كأنهم أموات ! قلت : فقد أرحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل في دورهم ، فليأمر سيدي بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمحاً وقد مد إلى يداً وددت لو استطعت قطعها ، ولكن تراجعت حتى لا تبلغني : فإن سيدك يأمرك أن تتبعه . ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في أثره . . . وصدق المسكين أني كنت أنتظره . ولو قد نفذ إلى قلبي واستمع إلى أحاديث نفسي لعرف أني لم أكن أرقه في انتظاره ، وإنما كنت أسامر أشباحاً حمراء لو رآها لملى قلبه رعباً ولولى منها فراراً . ولكن لم ير إلا إياي ، ولم يفكر إلا في ، وما له وللأشباح الحمراء !

وعدت إلى غرفتي بعد ساعة ، راضية عن نفسي كل الرضا ، مطمئنة إلى قوتي كل الاطمئنان ، فقد بلوت الخصم ولقيت العدو في ميدانه الذي اختاره هو ، وكانت بيني وبينه مقدمات النضال ، فلم أضعف له ، ولم أشفق منه ، وإنما ثبت له ثباتاً ، ثم انصرف عنه وقد علقت بين السخط والرضا ، ووقفته بين اليأس والأمل . لم أجد في شيء من هذا كبير مشقة ، ولم أحتمل في شيء من هذا عظيم عناء ، وإنما هو الابتسام المطمع المغري ، والأحتشام الذي يقل العزم ويشبط الهمم ، ويسيطر سلطان الحياء على النفس فإذا هي ترتد بعد امتدادها ، وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشراره .

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عنيفة يملؤها الهول ، ويحرق بها الخطر ، وتنتهي إلى الفصل فيما يكون بيني وبين هذا الشاب فإذا ضعف واستنار ، وإما قوة وانتصار ، يتبعهما الطرد العنيف من هذه الدار . ولكني ملكت أمري وملك هو من أمر نفسه ما جعل المعركة الأولى مقدمة لا خاتمة ، وما أجل الفصل في هذه الحصومة إلى أجل ظنه قريباً ورأيته بعيداً . وقد انصرف عنه بعد أن أعتته على بعض أمره وهيأت له ما يحتاج إليه ، وتركته كاسف البال يظهر الرضا والابتهاج ، وهو يقول : لا بأس ! إنك في حاجة إلى التربية والتعريب .

ولم أكد أثوب إلى غرفتي وأغلق بابها من دوني إغلاقاً محكماً حتى تراءت لي أختي وهذه الظلال التي ترافقها . كأنما كن ينظرني ليعلمن علمي وليسمعن نبأ ما أبليت مع الخصم من بلاء . ولقد همت أن



أتحدث إليهن ، وأقص عليهن ما سمعت وما رأيت ، وما عملت وما آيت .  
ولكن ماذا ؟ إنهن ينظرن إلى نظراً قصيراً ، ثم يلمعن في وجوههن الشاحبة  
ابتسامة الرضا ، ثم يستخفين استخفاء كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعاً .  
وكنت أظن أني سأنتظر معهن مطلع الفجر ، صامرة كما كنت أسمر  
منذ حين قبل أن يرقى إلى سيدي كأنه اللص ، ولكني ألتصم من  
حول فلا أرى لمن محضراً ولا مظهراً ، وألتصم في نفسي فلا أظفر  
مهن بشيء . لقد غبن عن عني وغبن عن نفسي ، وكأنهن أمرن  
الذكرى أن تتبعهن وتمضي إلى حيث مضين . فأنا أريد أن أذكر  
فلا أستطيع ، وأريد أن أفكر فلا أجد سيلاً إلى التفكير ، وأنا آوى  
إلى مضجعي وقد كنت أزمعت ألا آوى إليه . ولكن للقوة البدنية حداً ،  
ولكن للتعب سلطاناً هو بأسطه ، وغاية هو بالغها . ولقد قضيت ليلة  
لم أذق فيها النوم ، وهذه الليلة الثانية قد انقضت أكثرها ، وكادت توالى  
نجمها تتغور ، فلا بد إذن من بعض الراحة سواء أرضيت أم كرهت . . .

ومن أجل هذا فارقتني أيتها الأخت العزيزة ، وفارقتني معك هذه  
الظلال الحمراء . إنكن لرفيقات في شقيقات على . وما يمنعكن من  
ذلك وأنا عندما تُردن ، لم أهن ولم أضعف . ولم أنهزم لهذا العدو  
الماكر القوي ! ليت شعري ! أكنن ترققن لي ، وتشققن علي ،  
وتصرفن عني وتخلين بيني وبين النوم ، لو أني خالفت عن أمركن  
واستجيت أو أظهرت الاستجابة لذلك الدعاء البغيض الذي كان يرسله  
إلى سيدي بالعين واليد واللسان ؟ !

على أن الأمر بين سيدي وبينى لم يلبث أن تعسر بعد يسر ،  
وتعقد بعد سهولة ، واشتد بعد لين . فلكل شيء أجل ، وللصبر أمد  
ينتهي إليه ، وللمطاوله غاية تقف عندها ، والميامرة خير إلا أن تستحيل  
إلى ضعف وإذعان . وما ينبغي لسيدي أن يظهر مظهر الضعيف  
المدعن لخادم مثلي ليس لها حول ولا طول ، وهي لا تأوى إلى ركن  
شديد ، ولا تعتر بقوة تحببها من يأمر وتعصها من سلطانها ، وإنما  
هي كلمة منه تبقىها في داره عزيزة مكرمة أو تخرجها من هذه الدار  
دليله مشردة . وقد علق سيدي هذه الكلمة في طرف لسانه أباداً وأياماً ،  
يهم بأن يرسلها حتى إذا بلغت شفته وكادت تتجاوزها إلى الهواء الذي  
يحملها إلى ردت إلى مكانها واستقرت في موضعها من طرف اللسان  
استقراراً وأطبقت شفتاه من دونها إطباقاً .

ومدت لي أسباب البقاء في هذه الدار يوماً أو بعض يوم ربما  
يخرج سيدي لبعض شأنه ، ثم يعود فيدعوني إلى ما كان يدعوني إليه  
في هذا الإلحاح المتصل ، المضحك المحزن ، الذي يفسد على الرجل  
أمره ويظهره قوياً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر ، عزيزاً كأنه السيد  
وذليلاً كأنه العبد ، ويطلق لسانه بما شاء له الهذيان من هذه الكلمات  
الجوفاء التي يملؤها الاستعطاف حين تكون نذيراً ووعيداً ، ويملاؤها  
المكر والكيد حين تكون استعطافاً واسترضاءً ، وتصور دائماً تقيض  
معانيها الظاهرة ، وتعب دائماً عما لم يرد صاحبها إليه ، ويملا نظراته بهذا  
الشرر المحرق حيناً ، ثم بهذا الانكسار الدليل حيناً آخر ، ويجعله بدور  
حول غايته التي يشتهيها وأمنته التي يبتغيها ، كما بدور العابد حول



الصنم ، وكما يدور اللص حول البيت يبتغي ثغرة يشل منها إليه !  
نعم ! كذلك كنت ألقى سيدي مع الصبح باسمة مشرقة الوجه ،  
أحمل إليه قدح الشاي وبعض الفاكهة قبل أن يشب من سريره . وقد  
كان سيدي يحيا حياة الإنجليز ، فلا أكاد أدخل عليه حتى ترتفع إلى  
عيناه وقد ملأتهما عواطف شديدة الاختلاف ، ومعان عظيمة التناقض ،  
فيها الحب وفيها البغض ، فيها الأمل وفيها اليأس ، فيها الوعيد وفيها  
الخوف ، فيها الشهوة وفيها الزهد ، فيها القرب وفيها البعد . وأنا أرى  
هذا وأحسه وأفهمه ، ولكن ، يا لقوة النساء ! إني لأقبل عليه بالشاي  
والفاكهة والتحية كأنني لا أرى شيئا ، ولا أحس شيئا ، ولا أفهم شيئا ،  
ثم أنصرف عنه وفي نفسي ما فيها من الرضا ، وفي قلبي ما فيه من الإشفاق ؛  
فقد كنت راضية عن نفسي وساخطة عليها ، وقد كنت شامتة في  
سيدي ومشفقة عليه ، وقد كنت أرضى لنفسي ما أنا فيه من الإطماع  
والامتناع ، ومن القرب والبعد ، لأعذب هذا الشاب الذي قتل أختي .  
وكنيت أنكر على نفسي هذا كله ، وأراه لعباً بالنار ، وتكلفاً للشر ،  
ولامعانا في الإثم . وقد كنت أرى أني قد خلقت لنفسي جواً من الرذيلة  
أعيش فيه إذا أصبحت ، وأعيش فيه إذا أمسيت ، وأتنفس هواءه  
المنكر ، وأبعث فيه سماً زعافاً . فما هذا الكيد الذي أكيدته ؟ وما هذا  
المكر الذي أمكره ؟ وما هذا التفكير الآثم الذي أملاً به رأسي وقاي ؟ !  
أصبح فأفكر في هذا الشاب لأغويه وأضنيه وأنقص عليه يومه ، وأمسى  
فأفكر في هذا الشاب لأدنيه وأقصيه وأورق عليه ليله ؛ وأنا فيما بين  
ذلك لا أفكر أفكر فيه ، عاطفة مرة ، وصادفة مرة أخرى ، لينة  
حيناً وقاسية حيناً آخر .

هذا كثير ! وأكثر منه أن تفرغ له فتاة كانت تستطيع أن تفرغ  
لها هو أظهر منه وأنتي ، وأكثر من هذا وذلك أن يستسلم هذا الشاب

لما يغمره من ضعف ، ويتورط فيها بيث حوله من شباك ، ويتعلق  
بفتاة مهما تكن فهي ليست شيئاً ، والفتيات غيرها كثير يستطيع  
أن يلتصقن مني شاء وكيف شاء . وأي شيء أسير من أن يرسل  
بستانيه إلى زنوبة أو إلى امرأة أخرى من أشباه زنوبة ، فلا يتقضى  
اليوم حتى تكون عنده فتاة أو فتيات يختار من بينهن من يشاء ! فما  
أكثر هؤلاء الفتيات اللاتي يلتصقن بالعمل في المدينة قد نشأن فيها أو  
انحدرن إليها من الريف كما انحدرت أنا منذ أعوام ؛ ولكن نفس الإنسان  
ضعيفة حقاً ، وقوية حقاً . لقد أقبلت على نفس سيدي كما أقبلت  
على غيري تلتصق عندي الحب ولذاته وآثامه ، فلما وجدت مني امتناعاً  
عليه وصدوداً عنه ونفوراً ملحاً منه ، أعرضت عن الحب ولذاته وآثامه ،  
أو أرجأت الحب ولذاته وآثامه وتعلقت بي أنا ، تريد أن تقهرني وتغلبني  
على أمري وتنصر علي ، وتظفر مني بما تريد .

فسيدي لا يطلب عندي الآن حباً ولا لذة ولا إثماً ، وإنما يطلب  
إلى خضوعاً وإذعاناً واستسلاماً . هو يريد أن ينتصر لا أن ينعم .  
ومن يدري ! لعله إنما يؤجل إقصائي عن داره حتى يتم له النصر ،  
ويتحقق له الفوز ، فيخرجني ذليلة صاغرة قد آمنت له وأذعنت  
لسلطانه ! ويكني أن يخطر لي هذا الخاطر وإذا أنا مثله متعلقة بالعناد ،  
ملحة في الحصام ، قد نسيت الانتقام أو كدت أنساه ، وأعرضت  
عن أختي وظلالها الحمراء أو كدت أعرض عنهن ، ولم أتمثل إلا عدواً  
يريد أن يقهرني ، ولا بد من أن أقهره ، وسيداً يريد أن يسطر سلطانه  
علي ، ولا بد أن أبسط سلطاني عليه .

وكذلك اتصلت حياتي في هذه الدار هادئة في ظاهر الأمر  
مضطربة أشد الاضطراب وأعظمه نكراً في حقيقة الأمر . ألقى سيدي  
باسمة ويلقاني باسمي ، ثم لا يتصل اللقاء بيننا حتى يستحيل الابتسام



إلى عبوس ، والرضا إلى سخط . وإذا هر يدعو فآني ، ويلج في الدعاء  
فألج في الإباء ، ويغري فأرتفع عن الإغراء ، وينذر فأستخف بالندير ،  
ويستطف فأتسو على الاستعطاف .

ثم - يا للهول ! - ماذا أرى ؟ وماذا أسمع ؟ وماذا أجد ؟ هذا سيدي  
مائلاً بين يدي يتلطف ويترفق ثم يستعطف ويستجدي ، ثم هذا هو  
جائياً بين يدي كأنه يتقدم إلى بالصلاة ، ثم هذا هو باكياً في صمت ،  
ثم هذا هو عجباً بالبكاء ، وما أنا ذى أكاد أضعف ويكاد بأخلفي  
الإشفاق لولا أن أجمع قوتي كلها ونفسي كلها وأدعو إلى أختي وظلالها  
الحمرء أتمس منهم العون ، وأستمدن قرة إلى قرة .

وأضئ بعد ذلك فيما كنت فيه من إباء ، ثم ينتهي الأمر بيننا  
إلى شيء يشبه المصادفة ، وإذا أنا قد أخلصت له ونفسي ، وإذا  
هو قد أخلص لي ونفسي ، وإذا نحن نتحدث في هدوء وأمن واستقرار .  
فأما هو فقد أمسين اليأس وعجز عن احتمال ، وأما أنا فأهزأ عليه  
الأمر مخلصه صادقة وأزين له الانصراف عني إلى من أحب وما أحب  
من الخليلات والخدم واللذات ، وإذا نحن نضحك على أن نفرق ،  
وإذا هو ينصرف عني على ألا يراني في الدار إذا عاد إليها . وأنا أقبل  
ذلك راضية عنه سعيدة به ؛ فقد شئت هذه الحرب وضعفت عن  
هذه الحصومة ، وكرهت هذه الحياة التي تملؤها المطاولة والمحاولة ،  
وتثقلها المهاجمة والمقاومة ، وقنعت من الغنيمة بالإيباب أو بشيء خير  
من الإيباب . فسأخرج من الدار ظافرة ببعض الشيء . أليس قد عجز  
هذا الشاب الجميل الوسيم المتروك الفنى القوي أن يبلغ منى ما بلغ  
من أمثالي ؟ أولست أخرج من هذه الدار وقد جرعت مرارة الهزيمة  
وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات  
لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء ؟

ولقد انصرف عني هادئاً وقد أظهر الرضا ، وفرغت لأمرى أهياً للرجل  
مزمنة ألا أرى زنوبة ولا ألقاها هذه المرة ولا أقم في المدينة ولا أعود إلى  
أقصى الريف ، وإنما آخذ قطاراً من هذه القطارات التي تمضي إلى  
الشمال نحو القاهرة ، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم ، فأرض  
الله واسعة ورزق الله ميسر لمن ابتغاه . وما أنا ذى قد حزمت أمرى  
وجعت متاعى الخفيف وصممت أن أخرج . ولكن البستاني موكل  
بالدار بمنعني أن أخرج منها ويحول بيني وبين الباب ، وينبئني بأن سيده  
أتى إليه أثناء انصرافه أمراً حازماً صارماً أن يحول بيني وبين الطريق ،  
وأن يتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع لمسكني في الدار حتى يعود .  
وإذا فلم يكن جاداً حين اتفق معي على أن نفرق . وإذا فلم يكن هادئاً  
حين أظهر الهدوء ولا راضياً حين تكلف الرضا ، وإنما كان ماكرأ  
مخادعاً . ومن يدري ! لعله كان صادق العزم خالص الرأي ، فلما  
انصرف عني تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه أن  
يرسل هذه الفتاة ولا يخضعها لما أراد .

وقد استيأست أو كذبت أستيش من ذلك الخاطر الذي كان  
يعينني أول الأمر على المقاومة أو يغريني بها أو يدفعني إلى الإغراء  
والإطماع ثم إلى الإباء والامتناع ! فقد كنت أعقد أن لهذا الشاب  
في أرباب . إنه يشبهني كما أشبه غيري من الفتيات ، وإن امتناعي  
عليه قد زاده حرصاً على وتعلقاً بي . ولست أكذب نفسي فكثيراً  
ما سألتها : أترى شهرته قد استحوالت إلى حب ؟ أما الآن فأنا مستيقنة  
أنه لا يحبني ، بل لم يحبني قط ، وأنه لا يشبهني ، ولعله يزدريني ،  
وإنما يريد أن يقهر في عدواً منمرداً وخصماً عنيداً ؛ فلاألقين البأس  
بالبأس ، ولاألقين العناد بالعناد .

وما كان أيسر الهرب لو أتى رغبة في الهرب أو فكرت فيه ،



لكني كنت أريد أن أترك الدار جبهة لا سرّاً ، وعلى علم منه لا على جهل . ومن يدرى ! لعل لم أكن أحب أن أترك الدار ، وإن كان هذا الخاطر لم يمرض لي ظاهراً جلياً . وهو يعود مع المساء ، وما أكثر ما يعود الآن مع المساء ، وينفق ليله كله في الدار لا يسهر ولا يلقى أصحابه . ومن يدرى ! بم كان أصحابه يعللون انقطاعه عن السمر وإثارة العزلة . ولكنه يعود اليوم إلى الدار هادئاً ظاهر الرضا ، ويلقاني كما انصرف عني مبتسماً في كتابة ، وهو يسألني : أما تزالين هنا وقد فارقتك على ألا ألقاك إذا عدت ؟ !

— أجل ! فارقتني على ألا تلقاني ، ولكنك أمرت خادمتك ألا يخلى بيني وبين الطريق .

— ومن زعم لك هذا ؟ لقد كذبت الخادم ، وما أرى إلا أنه حريص على بقائك ، كاره لفراقك ، ومن يدرى ! لعلك أنت لا تكرهين البقاء معه والاتصال به فهو الذي سماك لي ، وهو الذي أنبأني بمكانك ، وهو الذي جاء بك إلى هذه الدار . إنني إذن لأحمق ، لقد خدعني هذا البستاني ، ولقد اتخذ داري مسرحاً للهوى وهواه . فأنت إذن لا تعرضين عني ولا تحتجبين عني إيثاراً للشرف واستبقاء للعفاف ، فقد ذهب الشرف منذ زمن بعيد وضاع العفاف منذ أقبلت أو قبل أن تقبل على هذه الدار . وفي سبيل من ذهب الشرف ؟ وفي سبيل من ضاع العفاف ؟ في سبيل هذا البستاني الذي تهوينه ، وما أشك في أنه يهواك .

وكان حادثاً مطمئناً حين بدأ هذا الحديث ، حتى لم أكن أشك أنه كان عابثاً متكلفاً يلتمس الوسيلة إلى استئفاف ما بيننا من الخصام . ولكنه لم يكذب بمضي في حديثه حتى أخذ هدوؤه بفارقة شيئاً فشيئاً ، ولم يكذب بنهي إلى غايته حتى كان غضباً كله ، وشرّاً مستطيراً يتمثل بإنساناً يتكلم وينحرك ، ذاهباً جائياً منهياً للبطل لا يكاد يمنع عنه

إلا في جهد شديد .

على أني لقيت عنقه هذا وسخطه كما تعودت أن ألقى كل ما قديم إلى من ألوان العنف واللين ، ومن ضروب السخط والرضا ، ثابتة مطمئنة ، وقلت له في هدوء : لا بأس عليك ! خل بيني وبين الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أن جمعي بالبستاني جامعة ، أو تصلني به صلة . فلتن خلعت بيني وبين الطريق لأخذ أول قطار ، ولولا أن أشق على مولاي وأكلفه مالا يتكلف السادة الخدم لمرضت عليه أن يضعني في القطار وأن يرسلني إلى أي مدينة شاء ، فإني لا أبتغي إلا أن أعيش ، في حيث آمن على شرفي هذا الذي لم يذهب ، وعلى عناقى هذا الذي لم يضع وإن ظن سيدي في الظنون .

قال في غيظ يشبه الرضا وفي سخرية تشبه الجدل : ما تزالين تذكرين السادة والخدم ! فقد علمت منذ حين أن ليس بيتنا سيادة ولا خلعة ، وإنما بيتنا ما هو شر من ذلك وأبعد أثراً .

قلت : وما ذاك ؟ قال : هو هذا . . . ثم اندفع إلى هاجماً كأنه الليث يريد أن يزدرد فريسته ازدرداً ، ولكن المرأة لا تغلب إلا إذا أحببت ، ولا تقهر إلا إذا أرادت ، ولا تدعن إلا إذا رغبت في الإذعان . ومن أجل ذلك ارتد عني كما هجم علي ، واستأنف الخصام بيتنا كما كان من قبل عنيفاً ليناً ، وملتوياً مستقيماً ، وفيه ما فيه من هذه الألوان التي تفسد حياة العاشقين وتزيئها في وقت واحد .

وتتصل الحياة على هذا النحو ، لا أجدر لتقسي منها مخرجاً ولا نجد لنفسه منها مخرجاً ، وإنما دفع كل منا إلى صاحبه دفعا ، ورد كل واحد منا عن صاحبه ردّاً ، لا يستطيع أن يخرجني من داره ، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار ، ولا أستطيع أن أفارقه جبهة ولا خفية ، ولو قد فعلت لطلبتني حيث أكون من الأرض .



فليس عندي شك الآن في أن سيدى لا يشتهى ولا ينتفى أن يظهر على ويتصر على خصم عنيد ، وإنما هو الحب ، هو الحب الذى يطمع في كل شيء ويرضى بأقل شيء ، بل يرضى بلا شيء ، بل هو سعيد كل السعادة ما وثق بأن بيتاً واحداً يحويه مع من يحب ويهوى . هو الحب ما في ذلك شك ، لكن الشك المؤلم المضمي إنما يتصل بهذا القلب الذى يضطرب بين جنى أنا ، فما خطبه ؟ أمبغض هو كما كان مبغضاً من قبل ؟ أرأغب هو في الانتقام كما كان راغباً من قبل ؟ أحافظ هو لعهد هذه الأخت التى صرعت في ذلك الفضاء العريض ، ولعهد الأشباح الحمراء التى تقيم معها على هذا ينبوع الأحمر ، والتى قد طال مقامها معها حول هذا ينبوع ، وانقطعت زيارتها لهذه الدار فلم تلم بها منذ حين ؟

نعم ! الشك في هذا القلب الذى يضطرب بين جنى بعد أن استيقن أن هذا الشاب يحبنى ولا يستطيع عني سلوا . ما خطب هذا القلب ؟ أحب هو أم غير مكترث ؟ فإن تكن الأولى فقيم المقاومة ، وقيم العذاب ، وقيم تعذيب الحبيب ؟ وإن تكن الثانية فقيم البقاء في هذه الدار ، وقيم الصبر على هذه الحياة التى لا تطلق ؟

كلا ! كلا ! فكرى يا آمنة ، ماذا أقول ؟ فكرى يا سعاد . . .  
فقد محى اسم آمنة منذ دخلت هذه الدار .

فكرى يا سعاد . فقد آن لك أن تفكرى ، واعزى أمرك فقد آن لك أن تعزى ، أقيمي كما تقيم العاشقة أو ارتحلى كما ترتحل القالية ، فأما هذه الحياة المعلقة فليس لأحد فيها خبر وليس لأحد فيها غناء ، ولم يبق لك إلى احتمالها سبيل !

وقد فكرت سعاد ، وما كانت في حاجة إلى التفكير . وقد امتلأ قلبها وعقلها بهذه الحياة التى تحياها امتلاء ، واسترجا بها امتراجاً ، حتى أصبحت جزءاً منها أو أصبحت جزءين منها ، وحتى أصبح من أعسر الأشياء وأشقها أن تفكر الفتاة في هذه الحياة تفكيراً هادئاً مجرداً لا يتأثر بهذه العواطف العنيفة الحادة التى تتصور مرة كأنها النور الذى لا نقور بعده ، وتتصور مرة أخرى كأنها الإقبال الذى لا إقبال بعده ، وهى في الحالين شيء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جوهره الذى هو الحب .

نعم ! لقد أصبحت سعاد عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، بل أصبحت عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها في لحظة أو نوم ، إنما هى مستصحبة هذا الشاب إن حضر ، ومستصحبة هذا الشاب إن غاب . لا تهم بالخلوة إلى ضميرها حتى تجد صورته ماثلة فيه ، ولا تمد عينها إلا رأت شخصه ، ولا تمد أذنها إلا سمعت صوته . قد أخذت الحياة عليها من جميع أقطارها ، وقد زاد عنها كل شيء وكل إنسان ، وزاد عنها حتى أخذتها تلك المزينة وأشباحها تلك الحمراء . وانتهى الأمر بها كما انتهى الأمر بهذا الشاب نفسه إلى علة تشبه الجنون . لقد صرفت إليه عن كل شيء ، وصرفت إليها عن كل شيء .

ولم يبق بين هذين الخصمين العنيدين صراع أو تفكير في الصراع ، وإنما هو الإذعان الذى لا ثورة بعده والاستسلام الذى لا رجوع فيه . ولكن الكبرياء ما زالت مسيطرة على سعاد ، تصارع الحب فيها



فتصرعه ، وتغالب العشق فيها فتغلبه ، وما أكثر ما اندفعت الفتاة إلى الاستسلام ! حتى إذا تكادت تنهى منه إلى غايته ، وحتى إذا بلغت حافة الهوة وكادت تتردى فيها تمثلت لها الكبرياء قوية عنيقة ، ونصبت أمام عينها مرآة تنظر فيها فترى صورة آمنة الأبية العزيزة ، وترى صورة سعاد الضعيفة المهالكة ، فترتد وراءها خطوة أو خطوات ، وتوجل الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول !

وقد تغيرت سيرة سيدى أيضاً ، فهو يحب يلقى من الحب عناء وبلاء ، ويحسد من آلامه مثل ما أجده . ولكن كبرياءه قد ردت إليه هو أيضاً فأصبح يتعنى في غير إلحاح ، ويأمل في غير إلحاف ، كأنما أحس في حبه شيئاً من حياة فآثر القصد والاعتدال ، وكأنما أحس الإخفاق المتصل فآثر الحرمان في شيء من العزة على ذلك الإلحاح الذى لم يكن يعقبه إلا هزيمة وخذلان .

ولكنه يقبل على ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شيء من الرضا ، وفيها كثير من الحزن ، وفيها شك يتردد بين الرضا والحزن . يقبل على ذات مساء لا تائراً ولا مستسلماً ، ويقول لى في صوت لا حدة فيه : لقد آن لك أن تستريحى ، وآن لى أن أستريح ! فأنظر إليه نظرة إلى لم تفهم عنه وإلى تعودت أن تسمع كثيراً فتفهم أو لا تفهم دون أن تحفل بما يستقر في نفسها أو يعزب عنها مما تسمع ، ولكنه بعيد على حديثه فأسأله عما يريد ، فيقول : ستفترق لأنى نقلت إلى القاهرة .

وتقع من نفسى هذه الحملة موقع الصاعقة ، وإذا أنا ذاهلة لا أجيء ولا أتكلف حتى إخفاء الذهول ، وإذا أنا أجده شيئاً من الدوار يكاد يبلغ لى الإغماء لولا أن أتمالك ، وإذا دموع تنهمر في صمت متصل ، وإذا الفتي يلدنو منى فلا أرتد عنه ، وإذا هو يضع يديه على كتفى فلا أمتنع عليه ، وإنما أنا مغرقة في الصمت ودموعي

ماضية في الانهمار ، والفتى قائم بمكانه منى في هدوء لم أعهده ، ينظر إلى صامتاً دهشاً ، ثم ينأى عنى قليلاً وهو يقول في صوت شاحب : ماذا أرى ! إنك لتكرهين فراقى حقاً !

ثم يعود إلى صمته ، وأمضى أنا في صمى ، وتغضى دموعى في الانهمار . وما أدرى أطال بيننا هذا الموقف أم قصر ، ولكنى أسمع يدعونى في صوت قد فارق شحوبه وعاد ممتكاً مشرقاً كما عرفته ، وأرفع رأسى وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المنسكة فأرى وجهاً مشرقاً أشد الإشراف قد استقرت فيه أمارات الحزم والهدوء ، وإذا هو يقول لى : أما والأمر يتنا على ما أرى فلن تفرق . ستصحبينى إلى القاهرة ، ولن ينالك منى إلا ما تحيين . هلم فامضى في شؤونك كما تعودت أن تفعل ، هنى من أمرك وأمرى للسفر ، فلن نقيم هنا إلا أياماً .

ثم ينصرف عنى كما أقبل على هادئاً رزين الخطا . وقد أنكرت من نفسى كل شيء ، وأهم أن ألوم نفسى على هذا الضعف الذى لم أستطع إخفاءه ، ولكنى لا أجده من نفسى قوة على اللوم ، وإذا أنا راضيه عن هذه الحال الجديدة راضاً عميقاً قد مازج نفسى واختلط بدى ، ولكنه في الوقت نفسه راضاً حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر ، وإنما هى حياة الخادم التى اطمأنت إلى ما يلم بها من الأحداث ، وضت في حياتها لا تنكر شيئاً ولا تعرف شيئاً ، وإنما هى مستسلمة تذهب وتجيء ، وتأتى من الأمر ما تأتى ، وتدع من الأمر ما تدع ، لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا ، ولأنها تجد في هذا أقصى ما كانت تنتظر من السعادة .

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إلى منذ ذلك الوقت نظرات برئت من الطمع والأمل ، وقنعت منى بما يقنع به السيد التقي من الخادم



النقية ، فلا إثم بيننا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه ، وإنما هي حياة نقية بريئة قد استوفت بيننا كأننا لم نلتق قبل ذلك الوقت ، وكأن أحدنا لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التي أنبأني فيها أنه قد آن لكليتنا أن يسريح لأنه نقل إلى القاهرة .

وإني لأدعو أختي حين أدخلو إلى نفسي في النهار وحين أدخلو إلى نفسي في الليل فلا تستجيب لي صورتها التي كنت أعرفها في المدينة باسمه مشرقة ، ولا تستجيب لي صورتها التي عرفتها في بيت العمدة واجمة هائمة ، ولا تستجيب لي صورتها التي كنت أراها مطرقة إلى ينبوعها الأحمر ، تطيف بها ظلالها الحمراء .

لا تستجيب لي صورة من هذه الصور ، وإنما هي ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتندفع لها بعض الزفرات وقد تنهمر لها بعض العبرات ، ثم لا تلبث أن تنجاب كما ينجاب السحاب الرقيق ، وإذا أنا أعود إلى حياتي المضيفة الهادئة ، الحزينة في غير تكلف لحزن أو سرور . وأنقل مع سيدي إلى القاهرة وأقيم معه في دار أبويه موكلة بخدمته لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار ، ولا أجد من أبويه إلا برأً وعظماً ، وإلا رفقاً وحناناً . فأما هو فقد جعل ينظر إلى كلما تقدمت الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم ، قد اصطفاني لنفسه ، واختصني بوده ، وجعل يشركني في كثير من أمره .

يا لله ! إني لأحس شهاً بين هذه الحياة التي أحياناها مع هذا الشاب في دار أبويه الفخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التي كنت أحياناها مع خديجة في بيت أبيها بمدينة من مدن الأقاليم . لقد عاد الأمر يعني وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بيني وبين خديجة من النقاء والظهر . ألم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء !

ولكنها صداقة غريبة هذه التي تقوى وتنمو بين هذا الشاب المترف

الغني ، وهذه الخادم البائسة التي طالما طمعت فيها نفسه الطامعة ، وأغرته بها عواطفه الجائعة ، والتي طالما اتخذها غرضاً لأهوائه الآثمة ، وابتنى عندها من اللهو والحجون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثالها من البائسات الغافلات ، فلما لم يظفر منها بشيء حاصرها كما تحاصر القلعة ، وحاربها كما يحارب العدو ، فلم يستطع أن يقهرها ، ولم يستطع أن تقهره . وأقاما معاً في شيء من المواعدة لا يستطيع عنها سلواً ، ولا يستطيع عنه انصرافاً ، لا يشير إليها من آماله ومطامعه بقليل أو كثير ، ولا تلقاه هي من مقاومتها وامتناعها بقليل أو كثير لأنها لم تعد في حاجة إلى المقاومة أو الامتناع .

أأكذب نفسي أم أصدقها ؟ أأصارعها بالحق أم أموه عليها الأمر ؟ لقد رضيت حياتنا الجديدة واطمأن إليها قلبي كل الاطمئنان ، واغبتت بها نفسي أشد الاغبتاط ، وارتاح إليها ضميري هذا المتعب المعذب الذي كان في حاجة إلى أن يرتاح . ولكن أظل قلبي مطمئناً ونفسي مغتبطة وضميري مرتاحاً بعد أن مضت علينا الأسابيع والشهور في مدينة القاهرة قريبين بعيدين مؤتلفين مختلفين ؟ ألم أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه الهدنة قد طالت وبأن هذه المواعدة قد اتصلت أكثر مما كان ينبغي أن تتصل ؟ ألم أجد في أعماق ضميري شوقاً إلى تلك الحرب وجنوحاً إلى ذلك الخصام ؟ ألم أحس في دخيلة نفسي أن حياة هذا الشاب قد يكون لوناً من الصدء وأن احتشامه قد يكون فناً من الإعراض ؟ بلى ! وجدت هذا كله وأنكرته من نفسي أشد الإنكار ولتها فيه أعنف اللوم ، وما أشك في أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد ، ولأم نفسه في مثل ما كنت ألوم نفسي فيه .

وقد زاد هذا الحمل ثقلاً على نفسه وعلى نفسي أنه سار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التي ألفها في الأيام الأخيرة من حياته في الأقاليم .



فكان يغدو إلى عمله مصباحاً ويروح إلى دار أبيه حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد . ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يلمون بلورهم إلا ليخرجوا منها ، إنما دورهم فنادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل . وفي القاهرة مما يفتن الشباب ويغريهم شيء كثير طالما سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن أقمت فيها . فما بال هذا الشاب لا تبلغه فتنة ولا يتاله إغراء ؟ لقد رضى أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضا ، وابتهاجا بمحضر ابنهما كل الابتهاج ، ولكنهما رجلا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه في لزوم الدار والعكوف على القراءة والانقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصدقاء والتعرف إلى الناس . وكثيراً ما رغبته أمه في الخروج فلم يستجب لهذا الترغيب ، وكثيراً ما أغراه أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذاك من بيوت الأصدقاء فلم يستمع لهذا الإغراء ، إنما هو الغدو على العمل والرواح إلى الدار ، والأوقات ينفقها مع أبيه ، ثم الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كتبه يعكف عليها حتى يتقدم الليل .

وكان في أثناء ذلك ربما دعاني إلى غرفته وأخذ يتحدث إلى ويسمع مني ، وكانت المدينة وشؤون أهلها موضوع حديثنا في كثير من الأحيان ، كما كانت القاهرة وشؤونها موضوع حديثنا أحياناً أخرى .

كان يتحدث أو يسمع جالساً إلى مكتبه ، وكنت أتحدث أو أسمع واقفه غير بعيدة من مكتبه . وما أكثر ما دعاني إلى الجلوس وما أشد ما كنت أتمنى الجلوس ! ولكنني كنت أعتذر باسمه ؛ فما ينبغي لمثل أن تجلس إلى مثله وإنما حسب مثلي من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له ، وهذا كثير .

ألم تكن غريبة هذه الصداقة بيني وبين هذا الشاب على ما كان

بيننا من الائتلاف والاختلاف ؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الود الذي يكون بين الأصدقاء ؟ ! أما أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حباً ثائراً أكتمه على ما كان يكلفني كتمانها من الجهد ويحملني من المشقة والعناء . وأما هو فقد كتم أمره أسابيع وشهوراً حتى خدعني أو كاد يخدعني عن نفسه ، ولكنه ألقى النقاب ذات مساء فغير من أمرنا كل شيء . ألقاه في غير جهد وفي غير تكلف ، لم يضطرب له صوته ، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القلب الذي تضطرم فيه نار الحب . إنما تحدث إلى في هذا الأمر كما كان يتحدث إلى في أمر المدينة وفي أمر القاهرة بصوت لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ولا اعرجاج فيه ولا التواء !

قال : ألا ترين أن الأمر بيننا قد آن له أن ينتهي إلى غايته ويبلغ مداه ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : هذا الحب الذي اختصمنا فيه وقتاً طويلاً وسكننا عنه وقتاً طويلاً ، ولكنه لم يسكت عنا ، فما أظنه قد أمهلك يوماً كما أنه لم يمهلني ساعة . أما ينبغي أن تنتهي هذه الحياة الغامضة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح ؟ وقد سمعت منه ولكنني لم أرد عليه جواباً .

فلما طال عليه صمتي استأنف حديثه في صوت لا يزال سواء ، فقال : إنك تفهمين عنى اليوم ما أريد ، كما فهمت عنى من قبل ما كنت أريد . قلت مبتسمة : بل إنى لم أفهم عنك شيئاً . قال ضاحكاً : بل تفهمين أنى كنت أريدك على الإثم ، وإنى الآن إنما أريدك على الزواج .

واحتجت إلى أن أعتد على كرمي كان منى غير بعيد ، فإن فكرة الزواج لم تخطر لي قط ، وما كان ينبغي أن تخطر لي ؛ فقد أقدمت على كثير من خطير الأمر وتصورت في نفسي كثيراً من جليل



العمل ، ولكني احتفظت دائماً بعقلي ولم يخرجني الحب كما لم يخرجني  
البغض ، ولم يخرجني الأمل كما لم يخرجني اليأس ، عن طوري في لحظة من  
اللمحظات . لذلك أجيته صادقة بأن هذا أمر لا ينبغي العبث فيه .  
قال وهو يضحك : فإنك تظنين أنني أعبت ، وتقدرين ما بينك  
ومني من الفرق الاجتماعي متى تزوج السيد الغني المترف من خادمه  
الشقية الفقيرة البائسة ! أليس هذا هو ما تقدرين ؟ فأريحي نفسك  
إذن من كل هذه الحواطر ، فقد رأيت منذ موقفاً ذاك في المدينة أنني  
لست سيدياً كغيري من السادة ، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست  
خادماً كغيرك من الخدم . لقد دهشت حين رأيتك تنتظريني إلى آخر  
الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتي سبقنك إلى خدمتي ،  
ولكني لم أكن أقدر أنك مستبشرين في نفسي ألواناً أخرى من الدهش .  
ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق والصمت ، وليت مائلة ذاهلة  
لا أقول شيئاً ، وأكاد لا أعي شيئاً ، ولكنه رفع رأسه ، وقال في صوت  
هادئ حزين : أتقبلين ؟ قلت في صوت ليس أقل من صوته هلواً  
ولا حزناً : فإن سيدي يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل . قال : تفكرين  
في أبوي ! فإني قد فكرت فيهما قبلك وقد حزمت أمري ، وما أشك  
في أنهما لن يمتنع علي ، ولو قد فعلا لعرفت كيف أمتنع عليهما ،  
ولكنهما لن يفعلا ، فهل تقبلين ؟ قلت : ليس إلى ذلك من سبيل .  
قال : فن حتى عليك أن أفهم هذا الامتناع ، إنك لتعلمين أن فراقاً  
بيننا مستحيل ، وإني لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبي رضا إلا في  
الزواج . قلت : فقد قضى على قلبي ألا يرضيا . قال : ومن ذا الذي  
قضى عليهما هذا العذاب المتصل ؟ وهممت أن أجيب ولكن صوتي  
يحبس ، ودمعي ينطلق ، وإني لأراني أهم بالانصراف ، وإني لأراه  
قد نهض من مجلسه متثاقلاً وسعى إلى متباطئاً حتى ردت في هلهة ودعة ،

ثم عاد إلى مجلسه وقال : أترين إلى كيف أملك نفسي ! ألا تفكرين  
في تلك الثورة الجارحة التي شقيت بها وقتاً طويلاً .

أنبئيني من ذا الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ؟ قلت : أنت  
الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ، وأنا التي قضت علينا هذا  
العذاب المقيم . كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شر وفكر ،  
وكلانا أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه المواقعة المصادفة التي لا ينبغي  
أن نطمح في خير منها فليس في الحياة خير منها بالقياس إليك ولا  
بالقياس إلى . قال : فإن حديثك لم يزد إلا غموضاً . قلت : فخير  
لنا أن نقبله على ما فيه من غموض . قال ، وقد ظهر أنه يبذل جهداً  
ليحفظ بهلوه : فإني أقسم لك أنني لم أعد أستطيع صبراً على هذه  
الحياة . قلت : وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة ، ولكن  
ما الذي نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب . قال : أي  
قضاء ؟ ألم يأن لك أن تنصحي ، ألم يأن لي أن أفهم ، ألم يأن لهذه  
الظلمة أن تنجاب ؟ قلت : أحريص أنت على ذلك ؟ إني لأخشى  
إن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر  
في وجه صاحبه . قال ، وقد غلبه العنف ، فارتفع صوته قليلاً واضطربت  
يده اضطراباً خفيفاً : بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن العاقبة . قلت :  
فاذني لي إذا بالجلوس ، ولم أنتظر إذنه ، وإنما جلست على هذا الكرسي  
الذي كنت أعتمد عليه ، وألقيت عليه قصتي في صوت هادي مطرد  
لا يبله اللمع ولا يظهر فيه الحزن ، ولا يتم عن قليل أو كثير من الاضطراب  
إنما ألقيت عليه قصتي كأنني أتحدث عن شخص غريب إلى شخص  
غريب .

وما أدري أطلال الوقت الذي أقيت فيه قصتي أم قصر ، ولكني  
أعلم أنني سمعتني أقول : أفهمت الآن ؟ أترى إلى هذا الضوء الذي



يغمرنا ؟ استطيع أن تنظر إلى ؟! وقد انتظرت جوابه لحظه غير قصيرة ، ولكنى سمعته كأنما كان يتحدث إلى من مكان بعيد جداً ، سمعته يقول : نعم ! استطيع أن أنظر إليك ، ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك ، وأنت أنطيقين أن تنظري إلى ؟ أما زلت تضررين الانتقام ؟ ولم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التي انكسرت نفسها وذاب قلبها ، فهو يسيل من عيناها دموعاً . ثم أسمعته بعد وقت لا أدرى أكان طويلاً أم قصيراً يقول لى : لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء ، فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه . أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذى أخذ يغمرنا شراً من الظلمة التى خرجنا منها ؟ إن أحدهما لن يستطيع أن يهتدى فى هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه . إن العبء لأثقل من أن تحمليه وحدك ، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدى ، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب ! غرقنا فيه يقظين كما يغرق النائم فى نوم برئ من الأحلام .

ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغنى فينتزعنى انتزاعاً من هذا الصمت العميق ، فأثب وجلة مذعورة ، ويشب هو وجلاً مذعوراً ، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء ، فأما أنا فتنحدر على خدى دمعتان حارتان . وأما هو فيقول وقد اعتمد يديه على المائدة ، دعاء الكروان ! أترينه كان يرجع صوته هذا الرجيع حين صرعت هنادى فى ذلك الفضاء العريض !!

القاهرة ، سبتمبر ١٩٣٤

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٩٤٤

I.S.B.N 977-01-3821-5